مشاهد الوجــود وشواهد التوحيد

الشيخ/ معوض عوض إبراهيم
من علماء الأزهر الشريف

جمع وإعداد وترتيب
الشيخ/ أحمد مصطفى فضلية
خادم العلم والعلماء

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مشاهد الوجـــود
وشواهد التوحيد

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع القانوني: ٢٠٠٨/٢٨٠٨
الترقيم الدولي: 2-462-253-977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

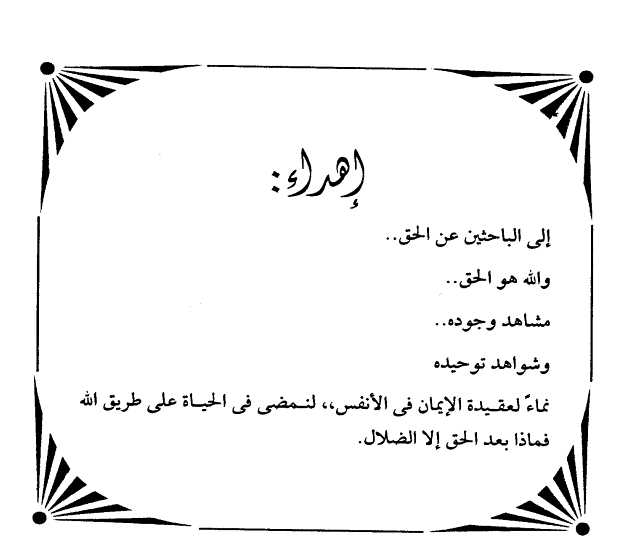
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

خير ما تفتتح بها الأعمال، وخير ما تستنجح بها المقاصد:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾

صدق الله العظيم





إهداء:

إلى الباحثين عن الحق..

والله هو الحق..

مشاهد وجوده..

وشواهد توحيده

نماءً لعقيدة الإيمان فى الأنفس،، لنمضى فى الحياة على طريق الله

فماذا بعد الحق إلا الضلال.

الكاتب والكتاب

الحمد لله مبدع الأكوان، وملهم البيان، ومنزل القرآن، ومسخر كل شيء بأمره لخدمة الإنسان، رحمة منه وفضلاً، أمرنا بقراءة كتابه المنظور فقال: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يونس: ١٠١] وأمرنا بقراءة كتابه المسطور؛ القرآن العظيم فقال: ﴿ **لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ [ص: ٢٩].

ونشهد أن لا إله إلا الله مكون الأكوان وخالق الخلق، ومنشئ الوجود من العدم، مالك الملك والملكوت، خالق كل شيء، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون. ونشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، خير من عرفنا بالله عن طريق آياته المجلوة وآياته المتلوة، صلى الله عليه وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وإيمان وصلاح وإصلاح إلى يوم الدين.

وبعد:

فلا أنسى أننى تعلمت من مؤلفات الشيخ محمد الغزالى رحمه الله، أن الداعية الناجح هو الذى يجمع بين عقل الفقيه وعاطفة الأديب.

وهذا سر نجاح دعاة الفكرة الإسلامية الذين اتصلوا بإمام الدعوة والدعاة فى العصر الحديث الشيخ الإمام حسن البنا رحمه الله ورضى عنه.

وقد منَّ الله علىَّ أن وصلنى ببعض هؤلاء العلماء الدعاة من أعلام الصحوة الإسلامية المباركة، ومن هؤلاء الشيخ العالم «معوض عوض إبراهيم» الذى يؤكد أثر الإمام حسن البنا ودعوة (الإخوان المسلمين) فى نفسه وتفكيره. وهذا ما لمسته فى صفاء فكره، وعمق إيمانه، وفهمه الدقيق، ووعيه العميق، وقوة أثره وتأثيره فى قرائه ومستمعيه، وكنت أبحث مع هذا عن سر جزالة لفظه، وعذوبة أسلوبه، ورقة عاطفته، وزكاة نفسه، فوجدت هذا فيما كتبه العالم الأديب الأستاذ محمد المجذوب فى كتابه القمة «علماء ومفكرون عرفتهم» أن الشيخ نزع إلى العلوم الأدبية واللغوية

منذ دراسته الأولى لـعلوم الدين، وأن التفسير وعلـومه أحب شيء إليه، ويخص من كتب التـفسيـر بالذكر: تفسـيرى القرطبى والمنار. ويعلل إقـباله عليهما لما يحملان من استطراد إلى جملة من العلوم الكونية. . .

وهذا الكتاب ثمـرة من ثمرات عقله المؤمن بالله، وحصـاد قلم سائح فى آيات الكون المجلوة وآيات الوحى المتلوة، فـهى بحق مواعظ سـائح فى رياض القرآن، لفارس من فـرسان المنبر وعظًا وإرشادًا ودعـوة وبلاغًا، نُشرتْ فى كـبريات منابر الإعـلام الإسلامى المقـروء وأذيعت فى إذاعات صـوت الإسلام فى بلاد العـروبة والإسلام.

تحت هذا العنوان الموحى «مشـاهد الوجود وشواهد التوحيـد» للشيخ العالم، والواعظ المؤثر، والخـطيب المفـوه، والشـاعـر المؤمن والكاتب الأديـب الشـيخ «معوض عوض إبراهيم» من علماء الأزهر الشوامخ فى القرن العشرين. من جيل العلماء الذين يجمـعون بين تقوى الله وفقه الدين، وعلوم الفطرة. وفـهم كتاب الله بمعونـة العلم الذى يبحث من أسـرار الفطرة عمـا حث القرآن على البـحث عنه. . .

وهذا لعمرى سـلاح من أمضى أسلحة الدعوة فى العصـر الحديث، جاء بأينع الثمرات فى تقـوية الإيمان بالله والقضاء على نزعة الشك والإلحـاد والعودة بالناس إلى حظيرة الإيمان.

يقول الدكتور محـمد أحمد الغمراوى[1] فى كتابه القمة «فى سنن الله الكونية» عبـارة تكتب بماء الذهب: «إن هناك حقـيقة باقـية، هى أن العلم لا يسيـغه رجل الدين إلا إذا قدم له بروح الدين، والدين لا يقـبل عليه رجل العلم إلا إذا قدم له بروح العلم. . .»[2].

(١) أستاذ الكيمـياء بكلية الصيدلة -جامعة القـاهرة- ومن الرعيل الأول الذين أسهموا فى تشييـد بناء الثقافة الإسلامية -ومن زملاء المغفور له الدكتور عبد الحميـد سعيد فى تأسيس جمعية الشبان المسلمين- اشترك فى ترجمة بعض المعارف الغربية من العلوم الكونية والفلسفية والتربوية.

(٢) انظر مقدمة الكتاب -طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٣٥٥هـ- ١٩٣٦م).

وهذه الحقيقة الإيمانية والعلمية الباقية كانت أمام عقل الشيخ وهو يخط تأملاته العقلية الرائعة فى «مشاهد الوجـود وشواهد التوحيد» لا سيما إذا علمنا أن الشـيخ ممن سعـدوا بدراسة سنن الله فى الكون إبان تدريسـها فى قـسم الوعظ والإرشاد بكلية أصول الدين.

إن هذا الكتاب متفرد ومتمـيز، وقد انفرد به الشيخ فى خطاب الوعظ والإرشاد المثمر المؤثر فى القراء والمستمعين على السواء.

وقد تميز به الشـيخ فيما أرى مع رهط من دعاة الفكرة الإسلامـية الذين جاءوا امتدادًا لمدرسة الإحياء والتجـديد الإسلامى التى وضع نواتها الإمام المصلح محمد عبده وتلاميذه الكبار من أئمة الإسلام المجددين أمثال رشيد رضا ومحمد مصطفى المراغى، ومصطفى عبد الرازق ومحمد عبد الله دراز ومحمد الخضر حسين وحسن البنا ومحمود شلتوت ومحمد الغزالى ويوسف القرضاوى ومعوض عوض إبراهيم وغيرهم كـثير من أعلام هذه المدرسـة الرائدة التى جددت فهم الإسلام لـتجدد به حياة المسلمين، وإن كان تميز الشيخ مـعوض عوض إبراهيم قد جاء بارزًا فى مجال الدعوة والإرشاد كعالم أديب وشاعر مرهف الحس رقيق الوجدان، يؤثر فى الناس بكلامه البليغ وشعره الصادق.

والحق أن الشيخ ظلم عقله وفكره على مـدى ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن من الزمان فهو يقترب من المئوية أمد الله فى عمره وبارك فيه...

فلو أن الشـيخ اهتم بجمع مـقالاته وخطبـه وأحاديثـه ومحاضـراته منذ أن بدأ الكتابه عام ١٩٣٢م ومنذ بدأ يخطب ويحاضر فى قرى مـصر ونجوعها ومدنها من أسوان إلى الإسكندرية وبورسـعيد وجبـهة القناة من حرب الاسـتنزاف إلى النصر المظفر عام ١٩٧٣، بالإضافة إلى أوطان إسلامـية عديدة زارها وعاش بين شعوبها سنين عددًا (السـودان، الصومال، اليـمن، قطر، البحرين، السـعودية، الكويت، العراق، الأردن، لبنان) لأربت كتب المؤلف على الخمسين كتابًا...

ولكن الشيخ كان دائمًا مشغولاً بإعداد محاضراته وخطبه وأحاديثه المتتابعة هنا وهناك. ولما بلغ هذه السن احتاج إلى من يقرأ له ويكتب له حتى جاء بى إليه قدر الله والذى لا يأتى إلا بخير. فزرته باحثًا عن معلومات عن الشيوخ الذين شرفنى الله بنشر تراثهم وهم: العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ محمد محمد المدنى، والدكتور محمد أبو شهبة، والشيخ الثائر محمد عبد اللطيف دراز، فإذا به يشكو إهمال تراثه، فشمرت عن ساعد الجد. ومكثت فى بيته الكريم ليالى وأيامًا وهو معى نبحث هذا التراث من جديد ليرى النور ويطالعه القراء علمًا نافعًا إن شاء الله. ويقع هذا التراث فى أكثر من ٢٣ عنوانًا أعددت منه حتى الآن: نفحات القرآن، من آداب النبوة، رجال ونساء فى مجال القدوة، التقوى والمتقون، وهذا الكتاب: شواهد الوجود ومشاهد التوحيد، من رحيق الإيمان.

- مع الكتاب:

ليس أنفع للعبد فى حياته الدنيوية والأخروية من تدبر آيات الله فى كونه وآياته فى كتابه العزيز. فيستدل بها كل ذى عقل رشيد وبصيرة نافذة على عظمة المبدع المكون موجد الكائنات من العدم، ومقدر مقادير كل شىء منذ القدم. ومن عظيم صنع الخالق عز ذكره أن جعل كتابيه للخلق، كتاب منظور مفتوح وهو الكون. يقرؤه العالم والجاهل، والكبير والصغير، والمثقف والأمى، وكتاب مقروء أنزله على نبيه ليرشد الناس إلى آثار قدرة الله بديع السماوات والأرض . ولكل من الكتابين مقصد»[1].

وهذا الكتاب «مشاهد الوجود وشواهد التوحيد» أحد روائع شيخنا العالم الأديب، والداعية المربى، والواعظ المؤثر، الشيخ معوض عوض إبراهيم -حفظه الله وأمتع به وأعز به الإسلام والمسلمين.

(١) اقتباس من مقدمة كتاب (مظاهر كونية فى معالم قرآنية) للأستاذ محمد محمود عبد الله.

وهو محاولة جادة ومؤثرة لبيان آيات الله المجلوة الدالة على شواهد وجوده جلت آلاؤه، وآياته المتلوة فى كتابه الباقى الذى تأذّن سبحانه بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

لقد أراد الشيخ المفكر فى مشاهد وجود الله وشواهد توحيده أن تكون نماءً لعقيدة الإيمان فى الأنفس. فبعد أن ذاق حلاوة الإيمان بخالق الكون ومدبره ومسيره، وعاش متفكرًا متأملاً فى آياته المبثوثة فى الكون الدال على خالقه، قدّم لقرائه ومستمعيه تجربته الشخصية فى هذا الميدان الفسيح فيقول:

«كم تكون التجربة الشخصية جلاءً للحقائق، وضياءً بين يدى ما استغلق على الناس فهمه واستعصى علمه، وكم مرة قرأت قول الله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ⦗١٦⦘ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦، ١٧]. فأجد منها نورًا يضىء الزمان والمكان، وأروح ألفت إليه من كانوا فى الصبا الباكر يأنسون إلىّ ويحفُّون حولى ونحن نجلس أمام بيتى كل مساء حين كنا نعود من معاهدنا وكلياتنا إلى قُرانا.. والليل فى الريف بليل النسمات جميل السمات، وادع هادئ يعين على التأمل، ويستدعى النظر فى كل ما يبلغه البصر ويقع فى مجال فكر الإنسان.

ويؤكد شيخنا الجليل بعد أن روى فى كتابه بعضًا من تجاربه مع تأملاته فى أسفاره «أن الصالحين غرباء بين أهليهم وذويهم الذين لا يمضون فى الحياة على طريق الله، وهم كصالح فى ثمود، أو كمصحف فى بيت زنديق كما قيل. ورحم الله الذى قال:

وما غربة الإنسان فى البعد والنوى ... ولكنها فى قرب من ليس من شكلى

وإنى غريب بين بَسْتٍ وأهلها ... وإن كان فيها منزلى وبها أهلى

وفى باب الكون الدال على خالقه، يلفت الشيخ أنظارنا ببصره النير وبصيرته النافذة إلى أن الكون كله شاهد بالمكون الأعظم فيقول: «إن الأدلة النفسية والكونية التى عرضها القرآن الكريم دلالة على شواهد الوجود ومشاهد التوحيد، هى أقرب

الوسائل وأفعلها فى توكيد هذه الحقائق وتقريبها إلى أفهام المخلوقين.

ولنتأمل معًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٨- ٨٠].

إنها صحائف مجلوة وآيات دالة حقًا على وجود الله، وإذا لم تكن هذه الحركة البصيرة، وذلك التصرف الحكيم الدقيق العجيب شاهدًا بوجود الله، فالعيب فى العقول المغلقة بأهوائها، وفى القلوب التى عليها أقفالها!!

رب إن الهدى هداك وآياتك   نور تهدى به من تشاء

ويبين الشيخ الجليل مراد الله من سوق الأدلة النفسية فى القرآن العظيم فيقول: «وحاش لله أن يكون مراد الله من سوق هذه الأدلة النفسية الكونية فى كتابه الباقى، بين آيات الأحكام والإعلام بسير الأقوام، والهداية للتى هى أقوم هو مجرد المجادلة بها، فإن وراء ذلك ما هو أهم، وهو إرساء العقيدة الحقة فى القلوب بالإقناع بها وجذب النفوس إليها..».

ويؤكد الشيخ أن الدلائل القرآنية أقوى مما سواها من الوسائل فى هذا الباب، فهى مع ما تفيده من العلم بوجود الخالق، فإنها تذكر أنعمه علينا، وفيوض فضله المترادف إلينا، وذلك من شأنه أن يثنى إلى الله أرواحنا، ويكبح عن الإثم جماحنا، ويزيد من حبنا لله، وإذعاننا لأمره، وهى آثار كرامتنا وعزتنا وشرفنا الرفيع فى الحياة ويوم نصير إلى الله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

حال المؤمن مع آيات الله:

ويصور شيخنا حال المؤمن.. بين آيات الله المجلوة وآياته المتلوة فيقول: «المؤمن يجد نفسه من ذكر الله بين حالين، فهو يستحضر عظمته وجلاله وقيوميته، ويوجل

قلبه وتأخذه بعض مشاهد الهيبة والرهبة إلى المدى الذى يقلع فيه من فوره عن الإثم والفجور والغفلة عن الله، إلى المتاب الحق والاستغفار الذى يفضى به لا محالة إلى رحاب: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ويدعونا نحن أبناء الأرض «. . . .أن نبرَّها ونحسن إليها، وندفع بمنهج الله مسيرتها، لنكون سادتها، ومالكى أزمَّتها، لا أن نكون صرعى تبرجها وفتنها ومظاهرها الكذوبة، فقد خلق الله لنا ما فى الأرض جميعًا وأسبغ علينا نعمة ظاهرة وباطنة واستخلفنا فى الارتفاع والانتفاع بأرض شق بحارها وأجرى أنهارها وفجاجها وسبلها، وأخرج الزروع والثمار فى مواضع منها تخرج حب الحصيد، وجعل من غيرها الثمر النضيد، وأبرز لنا شواهد قدرته ورحمته فقال ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

حاجتنا لآيات الله المتلوة والمجلوة:

يقول الشيخ: «. . . وكم أوجب الله أن ننظر فى أنفسنا وفى الآفاق، لنروى فى أعماقنا نبتة الإيمان، ونقدم لغرسة اليقين ما يزيدها رسوخًا فى الجوانح وقدرة على دفع الجوارح إلى طاعة الله الذى يعز من أطاعه ويذل من ضل عن سبيله وآثر هوى نفسه على هدى الله. . إن لله تعالى آيات متلوة فى كتابه يقول فيها ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وفى دنيا الناس من نفذ القرآن إلى كل مجامع الحس والإدراك فيهم فمشوا فى نوره، وقادهم قودًا رقيقًا إلى حقائقه فى أنفسهم وفى الآفاق من علو وسفلٍ ومن بين أيديهم ومن خلفهم حتى لكأن الكون ما عَلِمنَا منه وما لم نعلَم يقرأ كلمات الله المتلوة على نحو يستقيد الأسماع والأبصار والبصائر جميعًا، فيزداد الذين اهتدوا هدى وتطمئن قلوبهم بذكر الله، على حال يتعارض وحال أولئك الذين قال الله فيهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

ثمرة النظر فى آيات الله:

ويخلص العالم المربى الشيخ معوض إلى أن بإنعام النظر فى آيات الله المتلوة وآياته المجلوة لأنها تحفز منه العزم على أن تكون له تلك الآيات قوى دافعة، وطاقات رافعة إلى مستوى الإيمان الحق الذى يؤنس القلب برحمة ربه التى أطعمه فيها وقلَّبه بين جوانبها منذ كان فى رحم أمه وفى ظلمات ثلاث ثم صار وليدًا شدَّ الله به عرى المودة بين أبويه، وشب فى رياض حنوهما وإحسانهما حتى بلغ أشده وغدا وراح يتقلب فى رحمة الرحمن الرحيم المتمثلة فى الدين العظيم والقرآن الكريم، وفى أنعم مادية لا تحصى ولا يحيط بها الحصر وهى تزيد بشكر المنعم، وقوله الحق: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثمرة النظر فى السماوات والأرض:

يلفت الشيخ أبصارنا إلى أن الله «. . لفت الأبصار والبصائر معًا إلى استكناه السموات والأرض باعتبارهما من خلق الخلاق العظيم فقال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

إن السماوات والأرض وعاءان لما لا يحصى الإنسان من الأفلاك والأجرام والمنازل والأقوام، فلا عجب أن يجعلهما الله مجالا لإنعام النظر وإعمال الفكر، فيقول: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إن ذلك النظر سيفتح لا محالة آفاق المعرفة ويحطم أغلاق الجهل وسيمنحنا مزيدًا من الإيمان بوجود الله وعظيم قدرته وشواهد ربوبيته، ويقدم من المشاهد ما يُسْلم إلى مثلها، بحيث لا يملك المرء أمام ما يرى ويسمع إلا أن تطمئن نفسه بربه

موجودًا واحدًا له الأمر كله وهو على كل شيء قدير ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهذه السموات التي تعلو رءوسنا غير مرتكزة على عُمد تُرى، ولا على قوائم تجتليها الأبصار، كافية شافية في الدلالة على الصانع جل وعلا، وعلى قدرته وحكمته وانظروه في تصريف هذه العوالم المنظورة وغير المنظورة، دون أن يشاركه مشارك، أو يعينه معين في شيء من ذلك.. كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]،

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

وقد امتن الله علينا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ولله دائمًا الفضل والمنة، وهو يوقظ النائمين، وينبه الغافلين، ويرد عن فيض عباده سكر هواهم وشهواتهم وغرورهم بشيء مما يسمونه علمًا ومعرفة، والله تعالى يقول ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨] ويقول ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وبعد هذه التأملات الخاشعة، يضرع الشيخ إلى ربه بهذه الضراعة الحارة: «اللهم ارزقنا نظرًا ثاقبًا فى أرضك وسمائك وفى الأنفس وفى الآفاق لنظل نراك فى تلك المشاهد ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

آيتا الليل والنهار:

ويمضى بنا الشيخ مع آيتى الليل والنهار فيقول:

«والليل والنهار آيتان من الآيات الدالة الشاهدة بوجوده الموجبة لعقيدة توحيده، من خلال تأمل بياض هذا وحُلكة هذا، وقصر ذلك أحيانًا وطول مقابله، وما

يخلفان من حكم وأسرار لا تخفى عن أولى الأبصار، يقول الله فى امتنانه بهما علينا ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]. وجلت حكمة الله فلا يكون السكون والاستغراق فى النوم، بينما النور يكاد يذهب بالأبصار، ولا ينشط المرء إلى عمله والظلام حالك لا تتراءى فيه المسالك..

فاللهم ارزقنا من نور هداك ما نبصر به آياتك، ونحرز به رفيع مرضاتك، ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٧٢].

أما الباب الثانى ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فيقدم لنا الشيخ عطاء تأملاته وفكره المنير فيقول: «إن لله تعالى الفضل والمنة منذ أعطانا الإدراك السوى لما شاء سبحانه من أسراره فى الأنفس والآفاق، وجعل التذكرة والتدبر والنظر منافذ إلى مزيد الإيمان بالله وقدرته وحكمته ورحمته بمن خلق فقال تعالى ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

وقال ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويطالب الشيخ الإنسان بمعرفة نفسه فيقول:

«إن أوجب الواجبات علينا وعلى ذوى العقول والقلوب على سواء، أن نعرف الله تعالى بقدر ما وهبنا من وسائل الإدراك، ومنافذ العلم، التى نحسن بها تأمل آيات الله المتلوة فى كتابه، ونحسن بها استكناه أسراره وشواهد وجوده ووحدانيته وعلمه المحيط وقيوميته على كل شىء فى آياته المجلوة فى الآفاق والأنفس. والله تعالى يلفتنا إلى ذواتنا ممَّ خلقت؟ وإلى أغذيتنا كيف وجدت؟ وإلى الآفاق علواً وسفلاً، لنرى بديع صنع الله وباهر قدرته، وظاهر إحكامه وحكمته وسابغ

إحسانه، وبالغ جوده وإنعامه فى كل ما تراه عين، وتسمعه أذن، ويبلغه فكر، وتناله يد، ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

ويناشدنا الشيخ العارف بالله بقوله: «اعرف نفسك أيها الإنسان على حقيقتها حتى تكون ممن قيل فيهم (من عرف نفسه فقد عرف ربه)» وحتى تكون أحرص شيء على الاستجابة لأمر ربك واجتناب ما نهى سبحانه عنه وأنت منطلق بين مبتدئك ومنتهاك خليفة يحق مع أمثالك عن الله عز وجل فى إصلاح كونه وناس زمانه ومن يليهم ممن نوَّه الله عز وجل بهم فى قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. ولتكون بذلك أهلا لأن تناجى ربك بما ناجاه به الإمام الشافعى رضى الله عنه وهو يقول:

أذقنا رحيق الحب يا من إذا سقى
محبًّا شرابًا لا يجوع ولا يظمى

معرفة الإنسان نفسه طريق معرفته بالله:

يؤكد الشيخ ضرورة معرفة الإنسان نفسه ليعرف ربه فيقول حفظه الله: «الإنسان الذى تابع الله فيه وفى ذريته الخلافة فى هذه الدنيا، خليق به أن يعرف نفسه ليعرف ربه، وليؤدى واجبه، وليمضى فى الحياة على صراط مستقيم، بعد أن أدرك أنه مناط إعزاز الله تعالى، فهل عرف الإنسان ما هو؟ ومن هو؟

يأخذ الشيخ برفق وهدوء بك أيها الإنسان، فيعرفك بنفسك فيخاطبك بقوله الحانى: «أنت أيها الإنسان خليفة الله فى أرضه، خلق أباك آدم بيده الإلهية القادرة فى أحسن تقويم، وعلمه الأسماء كلها وأسجد له بذلك ملائكته، وأسكنه جنته،

وتابع فيــه وفى ذريته ميــراث هذه الأرض، بعد أن نفخ فيــه من روحه حتى لا تشده مغـريات الحياة بكل إحساسه ومداركه وقــواه إليها، فى غفلة من موجبات الاصطفاء، ومقتضيات الترفع عن عبادة الذات، وأسر الشهوات، وتأله المادة التى خلقها الله وامتن بها وبأنعمه التى لا تعد فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

ويمضى الشيخ مع الإنســان موضوعـًـا للدلالة على ربه ورب كل شىء بما ركب فيه مولاه من أسرار باهرة، وليعرف أنه حين تصح فطرة الله فيه، يكون قادرًا على أن يبرزها بحـاله تقديم الشرع على الطبع، فـإذا اتبع هواه وآثر الضلال على هدى الله، كان كل شىء خيرًا منه، وأقوم قيلا وأهدى سبيلاً، وهو يؤدى مراد الله منه، ويستـجيب لما أمره به مولاه قـال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ويؤكد الشيخ أن الإنسان سيبقى فيها، علَّمنا الله من أسراره فيه، وفيما لم نعلم من ذلك، مصدر إشعـاع ومبعث هدىً واتباع لمن يبتغون السـبيل إلى الله، فطعامه وشرابه، ويقظته ومنامه، وارتياحـه واكتئابه وشبابه وهرمه وشيخـوخته، وسائر ما يعرض له من صـحة وسقم، ورضى وغضب، وحب وبغض، وارتفـاع واتضاع، كل هذه ظواهر وآيات شاهدة لله بوجوده وقدرته وحكمته ورحمته. . .

ويا ضلة الإنســان حين لا يـنطلق من ذاته «فى أقل القلـيل» إلى خـالق ذاته!! أيظن أنه هكذا وُجد بلا موجد؟! وخُلق بلا خالق؟!

إن الحق تبـارك اســمه يسكت هذا الـظن، ويبطل ذلك الوهم، فى تسـاؤله له معناه، إذ يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

ويقول الشيخ: «. . . وليتنا نتأمل سرًا من أسـرار الإنسان التى لا يحصيها العد ولايحيط بهـا البيان، ونحن نذكـر ما قرره الخاصـة الذين هم أهل الذكر، من أن حرارة الجـسم إن زادت عن ٣٧ درجة مـئوية كان ذلك إيذانًـا بالخطر، وأن حرارة الكبد إن نقصت عن ٤٠ درجـة مئوية أفضى ذلك النقـصان بالإنسان إلى الموت، وأن حرارة العين إن زادت عن ٩ درجات مـئوية كانت العين مهيـأة -والعياذ بالله-

للانفجار، وكم فى الإنسان من أمثال هذه الأسرار التى تشهد أن الله تعالى شاهد لا يغيب وأنه أحسن كل شيء خلقه وأنه بالناس لرؤوف رحيم.

وبعد أن تحدث الشيخ عن الإنسان كآية من آيات الله المبهرة، مضى يحدثنا عن آية الله فى الأزمنة والأوقات والأعمار فيقول: «إن الدهر وما يحتويه من أزمنة - طالت تلك الأزمنة أم قصرت- آية من آيات قدرة الله الباهرة، وعظمته الفائقة، قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ﴾ [الإسراء: ١٢].

ويؤكد الشيخ «أن من دلائل قوة الإيمان وثبات اليقين أن يعى المسلم تمامًا نعمة الزمن وقيمة الوقت التى قررها الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس: ٦].

وجعل فى مُرادف الأزمنة وتعاقبها عبرة لأولى الألباب وتذكيرًا يدفعهم إلى طاعة الله، قال الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً** ﴾ [الفرقان: ٦٢] ويقول: ﴿ **يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ [النور: ٤٤].

ويختم الشيخ الباب الثانى بقبسات مضيئة أسهم فيها الإمام ابن رشد فيما نتوخاه بتبصير الجاحدين بأدلة الصانع وقدرته سبحانه وتعالى.. وهى آيات كثيرة فى الجو الذى نحن بصدده، نذكر منها فى دلالتها عقيدة وجود الله وقدرته وحدوث العالم عنه.. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا** ﴾ [النبأ: ٦-١٦].

قال الإمام ابن رشد: «إن هذه الآيات إذا تأملها الإنسان وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الإنسان».

* ويتـألق الشيخ فى البـاب الثالـث بإيمانه القوى، وعـقله الذكى، وفـؤاده النقى التقـى، فيـسطر بقلمـه السيـال أوضح بيـان لمشاهد الوجـود وشواهد الوحـيد فى تعـريف الله لنا بذاته المقدسـة فيـقول: «إن حـجة الله فى القرآن الكريم ناهضة على كـل ذى عقل، وهو سبحانه يقلب أبصـارنا وأفئدتنا فى مشاهد وجوده وشـواهد توحيده فى الأنفس والآفاق، ويعرف عبـاده بنفسه تعالى عن طريق مـا خلق ومن خلق، فالنظر فى المخلوقـات يهدى إلى الخـالق، وتأمل المصنوعات يدل عـلى الصانع. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

* ويحذرنا الشـيخ العارف بالله من الغـفلة عن الله، والكبر والغـرور، فهـما صوارف عن الإيمان بالله، ولولاهمـا لاستبان الحق لطلابه، ومضـى المبصرون فى ركابه، وهم يقولون مع الراسخين فى العلم «آمنا به».

* ويؤكد.. أن آيات الله من الكثـرة والوضوح فى الكون إنسَهُ وَجِنَّهُ وحـيوانه ونباته ومكوناته فى علو وسفل، وفى القرآن الذى يسـره الله للذكر، وأدنى حقائقه للفكر.. وقال فيه رب العالمين:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

* ويوضح الشيخ.. أن العقل وهو مناط التكليف فى الإنسان، وموضع التشريف فى أهل الإيمان، هو تلك اللطيفة الربانية التى يقول فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه: «رب من أعطيته العقل فماذا حرمته ومن حرمته؟!، العقل فماذا أعطيته»؟!

* هذا العقل قـد ندب إلى التفكر فى مـخلوقات الله لا فى ذاته، تعـالى شأنه وجل الله الذى قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

قرأها الرسول ﷺ ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتدبرها».

* وأولو الألباب يجدون فى البحـار والأنهار والنبات والأشجار، وفى الليل والنهـار والرياح والأمطار، والثمار والآثار، مـوجبـات الإيمان بالموجود الذى يفيض عن وجـوده كل موجود، ويطلون من ذلك على ما يجـعلهم يقولون عن تثبت ويقين: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤].

* ويمضى بنا الشـيخ ليـصف لنا هذا العـالم بالتـوازن الذى يدل على عظمـة الخالق. فيـؤكد أن هذا الذى قدمه فى كتـابه الممتع من آيات الله المتلوة سطورًا فى كتابه يتـجلى لكل ناظر بيسر مرئيًـا على صفحات الكون الكبيـر وهو فى حاليه، حجـة على من يعقلون فوق الحـجة المركوزة فى أعمـاقنا وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها وصبغته والجبلة التى لو بقيت فينا كما طبعنا الله عليها لأخذت بأيدينا إلى الإيمان الحق والعـقيدة الوثقى. وليس عـجبًـا أن يقول الله تعالـى لمصطفاه.. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، فإن معالم الهـدى فيه مجلوة، ومن التمس الهدى فى غير القرآن أضله الله.

وإنما يؤمن بعطاء القرآن من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه، وأجليت عنه سحائب غيه وانكشف عن قلبه حجاب الغفلة.

* ويود الشيخ الجـليل من بيانه لآيات الله الكبـرى، أن يستجلى للقـارئ التناغم والتوافق والانسجام التام القائم بين هذه المخلوقات علويها وسفليها، تناغمًا وانسجامًا قـائمًـا بين الإنسـان نفـسـه وبين هذه الكائنات الـتى خلقـهـا الله للإنسـان المكلف المستخلف، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

* ويتعجب الشيخ فيقول:

«ولا أكاد أفهم ولا أحـد يفهم أن يخلق الله للإنسان شيئًـا ينفر عنه أو يختلف معه، حين نأخذه بأسـباب ربانية ونحاول أن نستعمله ونتعـامل معه على أساس من هدى الإيمان وسـداد الفطرة وصدق النظـرة، إن الإنسان عند ذلك سـيرى جـلال الصنع وعمق الحكمـة وفيض الرحمـة فى المخلوقات التى تقـود الأسوياء إلى الله

انطلاقًا من القرآن وسيرًا مع شواهد الأكوان والنظر فى خوالج الإنسان.
وجل الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

* ويورد الشيخ كلامًا نفيسًا للإمام ابن قيم الجوزية فى مقام الدلالة على الله ووحدانيته... وصفاته وصدق رسله، وأنَّ لقاءه حق لا ريب فيه:

«ومن نظر فى الموجدات ببصيرة قلب رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد، لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالاً على فاطره وبارئه وعلى وحدانيته وعلى كمال صفاته وكمال أسمائه وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه، وهذه طريقة القرآن الكريم فى إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثًا، ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما شاهدوا أدلة صدقه وبما لو تأملوه لرأوه مركوزًا فى فطرهم، مستقرًا فى عقولهم، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته، أن الروح مركوز فى أصل فطرتها وخلقتها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا فى نفس روحه وذاته وفطرته، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته والشهادة بأنه لا إله إلا هو والإيمان برسله وملائكته ولقائه.

وللشيخ العالم تطواف حميد مع محاولات العلماء والمفكرين من غير المسلمين ممن أنصفوا عقولهم وهى تبحث عن أسرار الوجود الكبير وبخاصة خلق الإنسان، فقدم أقباسًا منيرة من كتاب (الإنسان ذلك المجهول) لمؤلفه ألكسيس كاريل، فيذكر ما قرره من «أن العناية بعلوم المادة أكثر من علوم الحياة هى سبب تخلف الحياة

والأحـياء؛ والجـهل بأنفسنا إلى المـدى الذى لابد أن نسارع فنعـمل على الإحاطة بعلم الإنسان الـذى أصبح ضرورة ماسة للحـياة بالإنسان الحى الذى خلق الله له ما فى الأرض جميعًا وأسـبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة وإن كان عنصراً من عناصر الحـياة؛ يؤلفها وتتـألف به. ويؤكد الشيخ أنه ضـرورة نأخذ منه الدين الخاتم. ونحن نهـتدى مع ذلك بكلام كـارليل وغيره ممن أنصـفوا فأخـدموا العلم لدين الله عبر العـصور وفى رسالته المهيمنة بكتـاب الله وسنة رسوله ﷺ منذ كان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليـها، ويؤكـد أيضًا بعـد قراءة مـبصرة للـكتاب فيقول:

«. . . والكتاب كما ذكـرت أقام دلالته على قيمة الإنسان والحـياة التى تسترعى اعتبار خلق الله أبانا آدم بيده القادرة وخلقه عـلى صورته البشرية الباهرة وعلمه ما لم يكن يعلم؛ وأسجـد له بذلك ملائكته «الذين يستغـفرون للذين آمنوا»، فلنكن منهم بالإيمان والعلم والعمل مخلصين».

وبعد: فلقـد أكثـرت لك النقل يا قارئنا العـزيز، تشويقًا لك لـتدلف إلى هذا السفر المبـارك وجوِّه الإيمانى بهمة وشوق. وإنى واثـق أنك ستزداد إيمانًا إلى إيمان ويقينًا إلى يقين، وهذا مبتغانا من نشر هذا الكتاب.

نسأل الله أن يختم لنا -جميعًا مؤلفه وقارئه ومعده- بخاتمة الإيمان. وأن يتولانا فى عباده الصالحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

كتبه الفقير إلى عفو الله،
أحمد مصطفى فضلية
خادم العلم والعلماء

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلى وأسلم على الرحمة المهداة سيدنا محمد بن عبد الله؛ الذى عبد ربه جهد قدرته، فبلغ بذلك ثلج صدره، وسكينة نفسه، وارتقى بذلك إلى مرتقى من المعرفة بالله تعالى لم يتح لسواه، فحفزت حدود المعرفة قواه، فكان يذكر الله على كل أحيانه، فى ليله ونهاره وفيما بين ذلك، وكان يقوم لربه الليل إلا قليلا حتى قال مولاه سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] ،ونسألك اللهم مزيدًا من العلم بك، نستعين به على أداء ما أوجبت من حقك على خلقك، ونستعين ما أودعته من الأسرار فى الكون علوًا وسفلا، لتكون طاقة دافعة فى الطريق إليك، مقتفين آثار مصطفاك لنتأهل لهداك ونكون فى عاجل وآجل مستوجبين عفوك ورضاك.

يا حق أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، فأنت الحق المبين، خلقت السموات والأرض بالحق ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ..﴾ [الأنعام: ٧٣].

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

والإسلام حق امتن الله به على عباده ولم يرض لهم سواه سبحانه دينًا، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

والقرآن حق، ومحمد والنبيون من قبله صلوات الله عليهم حق. وانقضاء الحياة، وتحول الأحوال، وبقاء ذى الجلال وحده والبعث حق. ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

والجنة حق والنار حق ووعده تعالى حق...

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وما أسعد المؤمن وهو يعرف ربه جهد استطاعته مستمليًا آيات القرآن فى ذلك وناظرًا هدايات رسول الله، ومرجعًا الفكر كرات ومرات فى نفسه وفى الناس، فدلالات كل ما تقع عليه عين وما يبلغ السمع صوته، وما يدرك بما وراء السمع والبصر من وسائل الإدراك والعلم رىّ لغرسة الإيمان بالله فى الأنفس.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

إن «الله جل جلاله علم على ذات واجب الوجود، وهو لفظ الجلالة وأكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء إنه اسم الله الأعظم، وقد انفرد به ربنا وحده فلم يسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع وهو أحد تأويلى قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أى من تسمى باسمه الذى هو الله.

ولقد عرف الناس فى الجاهلية الإله وأطلقوه فى شتى ديار الجاهلية وجمعوه عادين ظالمين على آلهة منذ أرسل الله نبيه ورسوله نوحًا إلى قومه وكانت الأصنام قد ظهرت لأول مرة فى تاريخ البشرية. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ١-٣].

وأظهرهم عليه السلام على شواهد القدرة ومشاهد الوحدانية فى أنفسهم وفيما حولهم وفيما يعلوهم وفيما هو أسفل منهم، وذكرهم أنعم الله الذى أنبتهم من الأرض نباتًا بعد أن خلقهم أطوارًا وجعل لهم الأرض بساطًا وسلك لهم فيها سبلاً فجاجا وشق أنهارها وأجرى بحارها وتعاهد أشجارها، ودلى ثمارها ووعدهم إن استغفروه بالمغفرة الوافرة والعمر المديد والعيش الرغيد الذى ينزل فيه المطر من السماء مدرارًا فيحيى به الأرض بعد موتها وتبقى السماء سقفًا محفوظًا بعد أن بناها ربنا ورفع سمكها فسواها وزينها بمصابيح، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

وليس وراء إعطاء ربنا عطاء، فما نفع القوم كرم الكريم ولا حلم الحليم ولا الجهد المبذول من نبيهم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ⑥ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ⑦ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⑧ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩].
وقال القوم بعضهم لبعض: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

روى الإمام ابن كثير عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن هذه الأصنام كانت تُعبد على عهد نوح عليه السلام.

وعن محمد بن قيس بسنده قال: كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يعتقدون فيهم، فماتوا فحزنوا عليهم، فقال أحد أصحابهم: لو صورناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما مات هؤلاء جاء إبليس أبناءهم فقال لهم: اعبدوهم فقد عبدهم آباؤكم، وكانوا يسقون بهم المطر، فعبدوهم».

إن الله أعرف المعارف، وهو رب كل شيء ومليكه، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه.

وهو اسم الموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى، وهو صوت الفطرة فى أعماق من أشرك ومن وحد، وفى أنفس من آمن ومن كفر، يفزع إليه تعالى كل مضطر ويحتمى بحماه فى النوائب حتى من لم يهتدوا بهداه، حيث لا ينجى من ظلمات البر والبحر سواه، فهو يتولى الصالحين ويملى للظالمين ولا يعاجل بالمؤاخذة إلى حين...

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]. إن الله وحده هو المقصود بالعبادة، ولقد عبد القوم فى الجاهلية الله، ولكنهم ضلوا حين عبدوا أوثانهم، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

فأعطوا غير الله ما هو من شأن الله، وذلك من الشرك لا ريب بمكان إن لم يكنه جميعًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ومما قال الشيخ محمد رشيد رضا عن شيخه الإمام محمد عبده رحمهما الله فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

وبدءُ الدعوة بأمر الله بعبادته وحده، هو سنة جميع المرسلين، فكان كل رسول يبدأ دعوته بقوله ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وذلك بأن جميع تلك الأمم كانت تؤمن بأن الله خالق الخلق هو ربهم ومدبر أمورهم، وإنما كان كفرهم الأعظم بعبادة غير الله تعالى بالدعاء الذى هو ركن العبادة الأعظم فى وجدان جميع البشر، وبغير الدعاء والاستغاثة من العبادات المعروفة، كالتقرب إلى المعبودات بالنذور وذبح القرابين.

إن الله تعالى فى وجدان كل إنسان وإن ران على بعض القلوب ما ران من أثر الغفلات والشغل بالحياة عن القائم على كل نفس بما كسبت.

مشاهد الوجود وشواهد التوحيد:

إن الكون كله، أرضه وسماؤه، وماؤه وهواؤه، وليله ونهاره، وبحاره وأنهاره، وزروعه وأشجاره وثماره، وحواضره وبواديه، وما علمنا منه وما لم نعلم مما بث الله فى أرضه وأخفى تحت ثراها من معادن وكنوز... كل ذلك وأكثر منه مما خلق الله وذرأ وبرأ وأطلق فيه أيدينا، وعلّمنا أن نطلبه جهد استطاعتنا بعلم ونظر وحرص على تعرف ما يعين الله عز وجل عليه من أسراره فى خلقه ومخلوقاته التى أقسم بها سبحانه فى هذه العوالم علوًا وسفلا وعن أيماننا وشمائلنا ومن فوقنا ومن تحت أقدامنا، وقسمُهُ تعالى بالليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والكواكب وما وراء ذلك، وقسمه تعالى بالسماء والطارق والضحى والليل إذا سجى والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس، يوجب أن نأخذ منها مزيد إيمان بوجود الله عز وجل ووحدانيته وقدرته على أن يقول للشىء كن فيكون.

هذا الكون كله خلق الله وملكه، وجل الله الذى يقول ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

ورضى الله عن أبى حفص عمر بن الخطاب فقد قال، وقد سمع يومًا هذه الآية-: أيها الناس، من كان له شىء وراء ذلك فليطلبه، فماذا وراء الخلق وهو سبحانه ﴿**الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ**﴾ [الحجر: ٨١] وماذا وراء الأمر وهو سبحانه ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢]:

ويقول مالى من يقول وأعبدى مَه، فالعبيد لربنا والدار

﴿**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [المائدة: ١٢٠] إرادته مطلقة، ومشيئته فى خلقه ومخلوقاته ماضية، وعلمه بما كان وما يكون محيط، وجلاله وكماله وجماله الذى يبدو فى كل شىء خلقه، كل ذلك وما وراءه

فرع حقيقة وجوده ومشاهد عزته وتوحيده، بديع السماوات والأرض، أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين وهو الخلاق العظيم.

وجل الله الذى ربَّانا، وحبانا بما يجمل بنا، وناجانا ونحن لا نراه بعيون، ولكنه آنسنا بجنابه وكرمنا فى رحابه، وأوقفنا على بابه، آخذين بأسباب الذكر والحمد، حتى رفعنا من مقام الغيب إلى مستوى المشاهدة والخطاب فقلنا ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ وأطمعنا ونحن نتقلب فى فيوض أنعمه أن ندعوه أول ما دُعى وسئل ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ فهو مالك أمر الدنيا والآخرة ورب العاجلة والآجلة، وإنه لمستوى من المشاهدة والحضور، نكون به عباد الرحمن الذين استيقنوا وجوده، ومضوا فى شواهد توحيده خلفاء راشدين.

إلا وإن وجود الله، وشواهد توحيده من أنفس ما يشغل القلوب، وإذا كان توحيد الله تعالى قد تعددت شواهده فيما خلق ومن خلق، فإنها جميعًا مشاهد وجوده الذى يصعب لبداهتها أن تقيم عليها الدلائل والبراهين، وماذا يكون الذى لم ير الشمس وهى فى كبد السماء وهو سليم البصر صحيح الإدراك.

وكم يكون مفيدًا أن أعرض بعض ما كتبه رجال من خارج حدود الأمة المسلمة ومن وراء اللسان الذى نزل به القرآن الكريم المستوعب لكل حقائق الإسلام وبخاصة إذا كان هؤلاء قد وهبهم الله الإنصاف وتحرى الصواب الذى يتجلى فى نظرهم القاصر وكلامهم المبصر، مما يجعلنا نردد قول الشاعر:

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

يقول الدكتور جول كلبرانس فى مقاله (الأدلة الطبيعية على وجود الله) فى كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم- ص٣٩): «هنالك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى، وتدل أياديه فى خلقه على أنه العليم الذى لا نهاية لعلمه، الحكيم الذى لا حدود لحكمته، القوى إلى أقصى حدود القوة.

ولما كان إدراك كنه الله من الأمور الغامضة علينا، فإننا لا نستطيع أن ندرك لماذا وجد الإنسان أو لماذا وجد هذا الكون الذى لايعدو أن يكون الإنسان ذرة ضئيلة من ذراته التى لا يحصيها عقل أو وصف.

إن الأمر الذى نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل إن لهما بداية، ولابد لكل بداية من مبدئ.

كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقد الذى يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة فى حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهًا وتدبيرًا خارج دائرة الإنسان، إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير إلهى محكم»... هذا الكلام يؤمن به العقل ويستيقنه القلب، وتمضى به النفس على هدى ونور إلى الحقيقة الكبرى التى يقول الله تعالى فيها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذرايات: ٥٦].

ونرانا أمام كلمات قالها الدكتور جورج إيرل دافيز عالم الطبيعة، فى مقاله (الكشوف العلمية تثبت وجود الله) من الكتاب نفسه ص٤٣: «إن التطور الذى تكشف عنه العلوم فى هذا الكون، هو ذاته شاهد على وجود الله، فمن جزيئات بسيطة ليس لها صور معينة وأعمار محددة، تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشرى عن الإحاطة بمدى إبداعها، وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون، بل كل ما دون الذرة مما لا يدركه حس ولا يتصور صغره عقل، قوانينها وسننها، وما ينبغى لها أن تقوم به أو تخضع له.

هذه أدلة كافية، ولكن هنالك ما هو أشد إعجازًا أو أكثر دلالة على وجود الله، فمن تلك الجزيئات البسيطة لم تنشأ النجوم والكواكب فحسب، بل نشأت كذلك أنواع متطورة من الأحياء، بل كائنات تستطيع أن تفكر وتبتكر وتخلق أشياءً جميلة، بل هى تبحث عن أسرار الحياة والوجود. إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها.

وأقول لكثيرين من أدعياء العلم والمعرفة من بنى جلدتنا ممن ينتسبون إلى الإسلام: هذا كلام أقوام ساقهم الإنصاف إلى استثمار الفطرة التى ساقتهم إلى العلم الذى جعلهم وجهًا لوجه يرون الحقيقة الكبرى، وهى وجود الله القائم على كل نفس بما كسبت، والذى بسائل فى كتابه الكريم ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

والآيتان وما تلاهما يختمهما قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

إن هذا الاستفهام المكرور فى هذه الآيات يختمها الله عز وجل ذلك الختام المؤكد لوحدانيته تبارك وتعالى، وماذا بعد أن يقول الله تعالى: أم لهم إله غير الله، ثم يختمها بقوله: سبحان الله عما يشركون. وهل بعد كلام الله كلام.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين...

❁❁❁

الباب الأول

الكون الدال على خالقه

- الكون كله شاهد بالمكون الأعظم
- آية الله بين الماء والهواء ريحًا ورياحًا
- لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس
- قل انظروا ماذا فى السموات والأرض
- السموات والأرض مرة أخرى
- آيتا الليل والنهار
- الليل والنهار فى القرآن الكريم
- وبالنجم هم يهتدون
- المؤمن بين آياته المجلوة وآياته المتلوة
- التجربة الشخصية دلالة لا ترفع



الكون كله شاهد بالمكون الأعظم

إن الأدلة النفسية والكونية التى عرضها القرآن الكريم دلالة على شواهد الوجود ومشاهد التوحيد، هى أقرب الوسائل وأفعلها فى توكيد هذه الحقائق وتقريبها إلى أفهام المخلوقين، ولنتأمل معًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨-٨٠].

إنها صحائف مجلوة وآيات دالة حقًا على وجود الله، وإذا لم تكن هذه الحركة البصيرة، وذلك التصرف الحكيم الدقيق العجيب شاهدًا بوجود الله، فالعيب فى العقول المغلفة بأهوائها، وفى القلوب التى عليها أقفالها!!

رب إن الهدى هداك وآياتك   نور تهدى به من تشاء

وحاش أن يكون مراد الله من سوق هذه الأدلة النفسية الكونية فى كتابه الباقى، بين آيات الأحكام والإعلام بسير الأقوام، والهداية التى هى أقوم، هو مجرد المجادلة بها، فإن وراء ذلك ما هو أهم، وهو إرساء العقيدة الحقة فى القلوب، بالإقناع بها وجذب النفوس إليها.

أجل. إن الدلائل القرآنية أقوى مما سواها من الوسائل فى هذا الباب، فهى مع ما تفيده من العلم بوجود الخالق، فإنها تذكِّر أنعمه علينا، وفيوض فضله المترادف إلينا، وذلك من شأنه أن يثنى إلى الله أرواحنا، ويكبح عن الإثم جماحنا، ويزيد من حبنا لله، وإذعاننا لأمره، وهى آثار كرامتنا وعزتنا وشرفنا الرفيع فى الحياة ويوم نصير إلى الله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. .

ألا يكون عجبًا من العجب.. أن ندعو أبناء القرن الخامس عشر الهجرى وأبناء بداية القرن الواحد والعشرين إلى تأمل كلمة العربى فى جاهليته حين نظر بعرة بعير، وأثار خطىً فى الأرض ثم قلَّب فى السماوات والأرض طرفه فقال: «إذا كانت البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير، أفلا تدل السماوات والأرض وما فيهن على وجود اللطيف الخبير»؟!

وكانوا ينشدون إلى جوار ذلك الأثر:

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قُضبِ الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

إنه لعجب حقًا، ففى السماوات والأرض اليوم أضعاف أضعاف ما رأى ذلك العربى.. والسؤال الآن.. هل لأولئك الذين يجادلونك فى الحق بعدما تبين عيون ترى؟ وآذان تسمع وعقول تعى ونفوس تنصف وتقنع؟! أم أن الأمر كما يقول الله ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وحدوث الكون ووجوده بعد أن لم يكن، ظاهرة تدل بداهة على وجود الله!!

وكل يوم جديد يضيف فيه العلماء من وراء مناظيرهم الكاشفة، وفى مختبراتهم الكثيرة ما يدعو إلى الإيمان بوجود خالق الوجود، ومكون هذه الأكوان، وقد يكون من المفيد أن أدعو إلى قراءة كتاب «مفتاح دار السعادة» للإمام ابن القيم، فهو لا ريب مفتاح لكثير لأولئك الأفراد الذين تحدثوا عن قوانين الحرارة وعالم الأفلاك والحركة والجاذبية والطاقة الشمسية، والذين رفضوا دعوى الطبيعة الخالقة، والمصادفة التى صرخ ويصرخ بها أقوام لم تعطفهم الحجج إلى الإقرار بأن هناك

إرادة حكيمة خبيرة بصيرة أمام كل شيء ومن ورائه، ولا يقوم وجودها إلا بوجود الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وإذا كانت حجة القرآن أبهر وأكبر، فهل لى أن أعرض دليل عالم الطبيعة «آلان» على عدم أزلية هذا الكون.. يقول: «كثيرًا ما يُقال: إن هذا الكون المادى لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلَّمنا بأن هذا الكون موجود، فكيف وجوده ونشأته؟! هنالك أربعة احتمالات للإجابة عن هذا السؤال.. فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده، وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العَدم. وإما أن يكون أبديًا ليس لنشأته بداية. وإما أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول، فلا يقيم أمامنا مشكلة، سوى مشكلة الإحساس والشعور، فهو يعنى أن إحساسنا بهذا الكون، وإدراكنا لما يحدث فيه، لا يعدو أن يكون وهمًا من الأوهام، ليس له ظل من الحقيقة، فالرأى الذى يدَّعى أن هذا الكون ليس له وجود فعلى، وأنه مجرد صورة فى أذهاننا نعيش فى عالم من الأوهام، لا يحتاج إلى مناقشة أو جدل!!

أما الرأى الثانى القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة، قد نشأ هكذا وحده من العدم، فهو لا يقل عن سابقه سخفًا وحماقة، ولا يستحق أن يكون موضعًا للنظر أو المناقشة.

والرأى الثالث الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية، إنما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الكون، وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية. وإذًا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حىّ يخلق.

وليس هناك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما فى الآخر، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًا،

وأنها سائرة حتمًا إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هى الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة، ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضِى الوقت..

إن الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، كلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذًا حدث من الأحداث.. ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية، عليم محيط بكل شىء، قوى ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه»..

وصدق الله العظيم ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ١-٦].

وفى كل لمسة وتر، وصكة حجر، ورفّة عود أخضر، وفى كل ورقة من شجرة، كما فى إرسال الرياح، ونزول المطر، وبزوغ الشمس وطلوع القمر وسطوع النجوم التى تهدى السارين فى جنح الليل الأليل، وفى كل ذلك من الاتساق والتناغم والنظام والإبداع والإحكام والنفع العام، ما يجعلنا نقول موقنين ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤]...

ونقول مع كل منصف ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ولقد ساق شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا فى كتابه «العقائد» بعض غرائب هذا الكون وبيَّن دلالتها على حكمة الخالق ورحمته ونعمته، فى الهواء الذى نستنشقه وفى الطعام الذى يجدد أنسجتنا التى أوهنها العمل، ويمدنا بما لابد لنا منه من قوة وطاعة، نقدر بهما على أداء مقتضيات الخلافة عن الله فى عمارة هذا الكوكب العظيم..

إنه الله الذى علَّم الإنسان ما لم يعلم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ليخلص من ذلك كله إلى الإيمان بوجوده عن طريق شهود أماراته فيما خلق ومن خلق... ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]..

وجلَّ الله الذى خلقنا فى أحسن تقويم وصورنا فأحسن صورنا وامتن علينا، فجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة وما وراءها من وسائل الإدراك والعلم، لنتعلم ونعمل ونقوم حيث أقامنا الله مصلحين فى الأرض متعاونين على الخير متواصلين بكل ما يجعلنا كالجسد الواحد تواصلا وتكافلا، واعتبارًا لما امتن الله تعالى به علينا وهو يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]..

وما يقوم بيت صالح ولا مجتمع راشد ولا أمة يرضى الله عنها، إلا ونحن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونسارع إلى الخيرات ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فلا كان من عاش لنفسه فقط «وخير الناس أنفعهم للناس»..

والناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدموا

ومن أصدق من الله حديثًا وهو يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

❁❁❁

آية الله بين الماء والهواء

إن ما عرفناه من أسرار الرياح والأمطار وما فيـهما من فوائد وما لهما من آثار، هو أقل بكثير مما لم نحط به من ذلك، وصدق الله العظيم ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهل سأل الجاحد نفسه.. ماذا تكون الحياة والأحياء من إنسان وحيوان ونبات، لو لم ينزل الله الأمطار ويرسل الرياح؟... ولقـد جعل الله الرياح لواقح، وتلك حقيقـة لم يعرفها العلم إلا فى القرن العشرين بـعد أن قرر ذلك القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، وهذا المستر آجنير الإنجليزى يقول «إن أصحاب الإبل قد عرفـوا أن الريح تلقح الأشجار والثـمار، قبل أن يعرفـها أهل أوروبا بثلاثة عـشر قرنًا!!» -كما قال-

وقد جعل الله من الماء كل شىء حىّ، وهى قضية مع ســابقتيها تحتاج إلى طول وقوف، ومـوصول تأمل للآيات القرآنية الكـثيرة التى امتن الله فيـها بالماء، أمطارًا وبحارًا، وأنهارًا وينابيع وعيونًا. يقول توماس دافيد پاركس:

«إن للماء كثيرًا من الخواص ذات الأهمية البالغة والتى إذا نظر الإنسان إليها فى مجموعها وجدها تدل على التـصميم والتدبير؛ فالماء يغطى نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض، وهو بذلك يؤثر تأثيرًا بالغًـا على الجو السائد ودرجة الحـرارة. ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على سطح الأرض تغـيرات فى درجة الحرارة تؤدى إلى حدوث الكوارث. وللماء درجـة ذوبان مرتفعة، وهو يبقى ســائلاً فترة طويلة من الزمن، وله حرارة تصعـيد بالغة الارتفاع. وهو بذلك يساعـد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند مـعدل ثابت ويصونها من التقلبـات العنيفة، ولولا كل ذلك لتضـاءلت صلاحية الأرض للحـياة إلى حد كبـير، ولقلت متعـة النشاط الإنسانى على سطح الأرض بدرجة عظيمة.

وللماء خواص أخرى فريدة من نوعها، تدل كلها على أن مبدع هذا الكون قد رسمه وصممه لما يحقق صالح مخلوقاته. فالماء هو المادة الوحيدة المعروفة التى تقل كثافتها عندما تتجمد. ولهذه الخاصية أهميتها الكبيرة بالنسبة للحياة، إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد، بدلاً من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار ويكوِّن تدريجيًا كتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها وإذابتها، ويكوِّن الجليد الذى يطفو على سطح البحر طبقة عازلة تحفظ الماء الذى تحتها فى درجة حرارة فوق درجة التجمد، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية حية. وعندما يأتى الربيع يذوب الجليد بسرعة.

ويمكننا أن نشير إلى كثير من خواص الماء الطريفة الأخرى: فله مثلاً توتر سطحى مرتفع يساعد على نمو النبات بما ينقله إليه من المواد الغذائية التى بالتربة، والماء أكثر السوائل المعروفة إذابة لغيره من الأجسام، وهو بذلك يلعب دورًا كبيرًا فى العمليات الحيوية داخل أجسامنا بوصفه مركبًا أساسيًا من مركبات الدم، وللماء ضغط بخار مرتفع على مدى واسع من درجات الحرارة، ومع ذلك فإنه يبقى سائلاً على طول هذا المدى المتسع اللازم للحياة.

وإننى أجد شخصيًا أن تفسير هذه الظواهر والعجائب بنسبتها إلى قدرة إله حكيم خبير وتصميم خالق علوى، يعد تفسيرًا مرضيًا للنفوس ومقنعًا للعقول.

إننى أرى فى كل ظاهرة من هذه الظواهر أكثر من مجرد الخلق والتدبير المجرد عن العاطفة، إننى ألمس فوق ذلك كله محبة الخالق لخلقه واهتمامه بأمورهم».

هذا هو الماء الذى يغلى من قيمته ويرفع من شأنه، أنه أجل ما نعرف منذ قال رسول الله ﷺ: **«كان الله ولا شىء معه وكان عرشه على الماء»**[1]. وجل الله الذى يقول: **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾** [هود: ٧].

(١) الترمذى وغيره.

وأنا وأنت قد نستغنى عن الطعام ساعات وساعات وأيامًا، ولكننا لا نستطيع أن نستغنى عن الماء إلا فيما دون ذلك بكثير. ونحن بحاجة إليه شرابًا واغتسالاً وتنقية ثياب وريًا لزروعنا وأشجارنا وما وراء ذلك مما خلق الخلاق العظيم.

وبالرياح عواصف أو رخاء لينة ونسمات رطاب، وللماء آثاره، وللرياح عواقبها، فلا عجب أن يتعدد امتنان الله بهذه وتلك فى آيات ذوات عدد فى كتابه، وأن نرى الحياة -كما أسلفت- كيف تكون فى كل حال من تلكم الحالات..

لقد أمطرت السماء مطرًا غزيرًا ذات يوم فحطَّم المطر الزرع، وأسقط الثمر، فرمقت إحدى الصالحات السماء قبلة الدعاء، وناجت ربها قائلة «افعل ما شئت فإن رزقى عليك»..

وعصفت الرياح يومًا، فكان أحد الصالحين حاضر القلب، يقظ اللب، فاقهًا حكمة الله فيما خلق فقال: «اللهم قد أريتنا عذابك، فأرنا رحمتك»، وصدق الله العظيم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]..

ويوم تسلم الحواس، ويرشد الناس، تتراءى عظمة الله لأفكارهم ومشاعرهم جميعًا.. وما ينبغى أن يحسب العقلاء حسابًا لأولئك الذين اتبعوا أهواءهم ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

إن حاجة الأحياء ماسة إلى الماء، وكذلك الحياة نفسها، ولولا الماء والهواء لبدت منكرة شوهاء، تُغْثى النفس، وتزعج الحس، ويضيق بها الأحياء، فلننظر معًا إلى هدايات قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

والبصر هنا أبعد من نعمة النظر، فهو الاستبصار والاعتبار ونظر العقل الذى تقوم به حجة الله على الذين يعقلون.. قال الإمام الشوكانى **«أفلا يبصرون هذه النعم، ويشكرون المنعم ويوحدونه كونه المتفرد بإيجاد ذلك»**..

وتَتَبَّع كلمة «الماء» فى غير موضع من سور القرآن وآياته، تُزيدك يقينًا فى مُنزله ومُفيضه والمنعم به وجاعله أصل كل شيء حيّ كما قال سبحانه ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٠]..

فإن الله ينكر جحود أقوام لم يروا ربهم من خلال هذه الآية، فضلاً عن آياته التى لا يحيط بها حساب الحاسبين، والحق الذى لا يمارى فيه عاقل أن الماء سبب حياة كل شيء، وهو أصلٌ أصيل فى وجود كل شيء، وإن كان جمادا..

ولعلك تلحظ نعمة الله بالماء وهو يجعل انقطاعه وامتناعه عذابًا وعقابًا.. أخرج ابن ماجة من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«ولم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا»**.

وفى شرح بلوغ المرام «باب صلاة الاستسقاء»: **«أن الله حرم قومًا من بنى إسرائيل السقيا بعد خروجهم -أى إلى الاستسقاء- لأنهم كان فيهم عاص واحد»**، ولقد أبصر الذى قال:

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم

والنبى ﷺ يقول: **«إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»**[1]..

وصدق الله العظيم: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم: ٧]

والكفر هنا جَحدُ الفضل وغمط الحق وعدم الإقرار لله بجميل، فما لأحد أبدًا من سلطان على الماء إلا بقدر ما علَّمنا الله من وسائل استخراجه من حيث أسكنه

(١) رواه ابن ماجة من حديث ثوبان بن بجدد.

الله الذى يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٨-٢٠]، وفى «فتح القدير» تفسير الإمام الشوكانى لهذه الآية قال: «هذا من جملة ما امتن الله سبحانه به على خلقه، والمراد بالماء ماء المطر، فإن به حياة الأرض وما فيها من الحيوان، ومن جملة ذلك ماء الأنهار النازلة من السماء والعيون والآبار المستخرجة من الأرض فإن أصلها من ماء السماء»..

واستبعد الإمام الشوكانى تخصيص الأنهار الأربعة المعروفة وهى النيل والفرات وسيحون وجيحون، أو الماء العذب، فقال «فليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء» ثم قال عن نزول الماء بقدر «أى بتقدير منا أو بمقدار يكون به صلاح الزروع والثمار، فإنه لو كثُر لكان به هلاك ذلك ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١]..

وأشار -رحمه الله- إلى استقرار الماء، وحكمة إسكانه فى الأرض فقال ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى جعلناه مستقرًا فيها ينتفعون به وقت حاجتهم إليه، كالماء الذى يبقى فى المستنقعات والغدران ونحوها»..

ولفت سبحانه الأنظار إلى شأن من شئونه، ومظهر من مظاهر قدرته فقال ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ أى كما قدرنا على إنزاله، فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه» وقال ولهذا التنكير.. أى فى قوله ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ حسن موقع لا يخفى. ثم قال رحمه الله: وفى هذا تهديد شديد لما يدل عليه من قدرته سبحانه وتعالى على إذهابه وتغويره حتى يُهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم. ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠]، ولقد قرأها بعض العتاة الجبارين فقال جهلاً وضلالاً: «تأتى به الفئوس والمعاول»، فلم يلبث غير قليل حتى عاقبه الله بمثل ما جحده وأنكره؛ فأغاض ماء عينيه، ولا عدوان إلا على الظالمين. ولقد عرفنا صحارى

يضل فيهـا الطرف لا تبدو فيها عين مـاء، ورأيت جبالاً فى لبنان ولعلك تعرف مثلها فى غير لبنان تُحفر ببـعض الأجهزة فإذا بالمياه تتفجر من بين هذه الجبال عـلى أنحاء تبدو فيـها حكمة الله فى نمو الزرع ودرّ الضرع ومـختلف أنواع انتفاع الإنسان ريًّا وصحة ومتاع أنفس. .

وإذا شقَّ عليك تتبعُ آيات الماء فإنى أسهم معك فى اسـتجلاء مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

تعاليت ربنا ولك الحـمد، فأنت وحدك أنزلت الماء من السـماء، وأنت وحدك أخرجت به النبات من الأرض، ذلك النبات الذى من شـأنه أن ينمو، بعد أن كان حبة غضة طرية وبرعمًا أخضر صغيرًا شقَّ الأرض بأمرك ومشيئتك مع ما هو عليه من ضعف ثم لم يزل ينمـو وينمو حتى حمل العـود بقدرتك ورحمتك مـن حبة القمح مثلاً حبًا متراكبًا هو السنبل، وفيها الحب المتراكب . .

وما أروع كلمة (خَضِرًا) إنها تشير إلى أن الشجرة الضخمة فى أصلها، والنخلة الباسقة فى مبدئها، وعود القمح وأمثاله، كانت كلها ذلك الخضِر أى البرعم الهش والنبتـة الغضة التى منحهـا الله من قدرته وحكمته مـا منحها حتى أعطت الـثمار وجادت بكريم الآثار . .

أجل . . كانت على هيئة شـجيرة صغيرة ذات ساق وورقتين فى قمـته، فيتصل نموها حتى تبلغ به الشأوَ الذى أراده الله، فتنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . .

إن حبة واحدة من القمح تستطيع أن تملأ مستـودعات الدنيا قمحًا بنفسها، وبما نبت وانبثق عنها، ولا غـرابة فى ذلك، وإنما الغرابة فيما يمـنحه تأملها من الدلالة الحقة على الصانع سبحانه . .

يقول العلماء «إن الحبة أو النواة إذا غُرست فى الأرض الرطبة وأُفيض عليها الماء أظهر الله فى كل واحدة منهما شقًا من أعلاها وآخر من أسفلها، فيخرج من الشق الأعلى الشجرة إلى الهواء حتى تبلغ غايتها، وتمتد العروق من الشق الثانى، وتصير تلك الحبة أو النواة سببًا لاتصال العروق بالشجرة».. ومن عجيب صنع الصانع الحكيم أن الحبة إذا وُضعَت فى الأرض الرطبة انتفخت ثم انشقت، ولا تنشق من الجوانب إلا من أعلاها وأسفلها كما مر بك، مع انتفاخها من شتى جهاتها..

وتأمل النواة الصلبة تنشق وتنفلق على نصفين يخرج من أحدهما الجزء الصاعد ومن الثانى الجزء الهابط -أى العروق-.. ويبقى الثمر والرواء والشموخ وهى تبهر النواظر وتَسبى البصائر..

ومرة أخرى إنه الله الذى نراه فى مشاهد الوجود.. وإننا لنقول دائمًا ما قالته ملائكة الله ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وما ينبغى أن يفوتنى وإياك دلالة قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

فلقد أردت أن ألفتك إلى نعم الله عز وجل علينا وهو يكرر كلمة (لكم) علّك تزداد يقينًا فى أن الله عز وجل ذو الآلاء والنعم. وقد أتناول هذه الآيات بعدُ لتوكيد فضل الله عز وجل ومننه التى لا يأتى عليها الحساب.

إن الماء أصل كل شىء حى، ولعل ما ذكرته فى هذه الكلمات غيضٌ من فيض من هذه النعمة الكبرى، وما أكثر ما قال العلماء فى نعمة الماء التى لا أنسى معها

نعمة الرياح الضرورية لإتمام نعمة الله علينا بالتنفس[1]، وبتلاقح الأشجار والزروع المختلفة. وربما بسطنا القول في قول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] مما جعل العلماء يذكرون أن كلمة الريح مفردة تذكر غالبًا، في بيان ابتلاء الله عز وجل بالريح غالبًا في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

والإمام الفخر الرازي يقول في تفسيره الكبير -المجلد العاشر (قال ابن عباس: الرياح لواقح للشجر وللسحاب، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك، وأصل هذا من قولهم: لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى الماء فيها فحملت، فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب. قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء وتمجه في السحاب، ثم إنه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة، فهذا هو تفسير إلقاحها للسحاب).

ثم ذكر الإمام أصل الريح فقال (الريح هواء متحرك، وحركة الهواء بعد أن لم يكن متحركًا لابد له من سبب، وذلك السبب ليس نفس كونه هواءً ولا شيئًا من لوازم ذاته، وإلا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال فلم يبق إلا أن يقال، إنه يتحرك بتحريك الفاعل المختار) والفاعل المختار هو محرك كل شيء والمتصرف في الأمور والكائنات كما يريد هو ولا اعتبار لما قال الفلاسفة في هذا السياق.

وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية في مصر جزء حصر للفظي الريح والرياح يقول فيه: الريح ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا...﴾ [الروم: ٥١] وقوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [البقرة: ١٦٤]...

وفي ذلك وفي كل ما يخطر ببالك ويبدو عن يمينك وشمالك وفي أي اتجاه، ما يؤكد أن الله ربنا ورب كل شيء.

---

(١) بنعمة التذوق والشم.

لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس

إنّ حديث السماوات والأرض ومشاهدهما الدالة على الله ووحدانيته وقدرته وبديع صنعه فى الأنفس والآفاق لا ينتهى، إنها موصولة ما دامت السماوات والأرض، وطاعتهما لله تعالى ملهمة معلمة، وشهادة الله تعالى بذلك تسمع كل ذى سمع، وتُقنع أصحاب النهى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

وكتابى (من نفحات القرآن) وثيق الصلة بموضوع هذا الكتاب، وبارك الله فيمن قرأه ليزداد إيمانًا على إيمان ويقينًا على يقين. وشواهد ذلك مجلوة ظاهرة على كل حين.

إن الأرض تستقبل كل ما يسوق الله من السماء من مطر، فتحيا بعد موت، وتخصب بعد جدب، وتعطى الأحياء من كل زوج بهيج، وتتراوح نباتاتها بين المناخ المعتدل والمناخ الذى يشتد ويعنف، وهو فى كلا حاليه مظهر من مظاهر الحكمة، ووجه من وجوه الرحمة، وضرورة لابدّ منها للحياة نفسها والأحياء كذلك، وهم يجدون فى كل جو ما يناسبه من حاجات حياتهم ومقومات وجودهم، ولو دام الجو شتاء لنفع الناس حينا من الزمان ثم تشتد حاجتهم إلى ربيع فصيف فخريف، وقلْ مثل ذلك فى هذه الفصول فصلاً بعد فصل، فلو اتصل الخريف بعد الصيف، لا يظهر وجه الحياة، ولَعراها ما يعرو الكائن البشرى فى خريف العمر من ضآلة الحركة واختلاط الأفكار، وعسر التجدد والعطاء ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وصدق الله العظيم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

إن السمـاوات السبع ومن الأرض مثلهن مجـال تتجدد فيـها آيات الله ولا تنتهى بحال، وماذا يذكر الذاكرون من ذلك وماذا يجهلون؟ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٧-١٩].

ولقد أذنت الأرض ذات الفـجاج لأمـر مولاها، وأذعنت السـماء ذات الأبراج لمشيئة الله، وقام بينهما من التـمازج والتواصل والتكافل والتجاذب ما يفتح الأعين على جلال الصنع، ودقة الخلق وحكمة الله، وما ينبغى أن يتعلم الإنسان منه كيف ينسجم مع غـيره من خلق ومـخلوقات، ويمضى معـها إلى مرضـاة الله عز وجل وطاعته، فالسماء بأفلاكها وكواكـبها والأرض بجبالها وبحارها وأنهارها وأشجارها وغلاتها وثـمارها، إن كانت هبة الله للكائن البـشرى فإنها إلى ذلك تُعلم الـكثير وتهدى إلى الصواب، وجلت حكمة الله الذى نصب مـرائى ثلاثًا لنردد فيها النظر ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

والإنسـان أحد المرائى الثـلاث فى هذه الآيات، هو الكائن الرفيع القـدر الذى خلق الله له كل ما خلق في الأكوان علوا وسفلا، وهو أهل الاعـتبار والاستبصار على كل حال. ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦-٨].

وما كـان ينبغى أن يغيب عن بعض بـنى الإنسان أنهم يخالفـون عن أمر الله، بترك طاعـته، ويذهبون بعيـدًا عنه بمخالفتهم وشـهواتهم، وهم يرون الأرض عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن تحت أرجلهم كما يرون السـماء من فوقهم، فى موكب الطاعة المهيب تواصلان سيرهما الوادع الرتيب شاهدتين بأن زمام حركتهما ومصدر الحكم والتصـرف فيهمـا لله وحده ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وفى موقف فذ من مواقف دعوة الرسول ﷺ للمشركين، أن يعبدوا الله وحده ويستقيموا على دينه الحق ويستغفروه مما فَرَطَ منهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

أجل قالتا أتينا طائعين، فماذا قال الإنسان ويقول إلى آخر الزمان وهو فى رحمة الله يغدو ويروح وفى أنعمه يصبح ويمسى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ...﴾ [النحل: ٥٣]، وفى الحديث القدسى: «إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيرى، وأرزق ويُشكر سواى، خيرى إلى العباد نازل، وشرهم إلىَّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمتى وأنا الغنى عنهم، ويتبغَّضون إلىَّ بالمعاصى، وهم أحوج شىء إلىَّ..»[1]، والله تعالى يقول فى كتابه الكريم [النحل: ٤٨].

ومن عجب أن تستجيب النحل والنمل فى كوكبنا الأرضى والطير فى أجواز الفضاء لأمر الله الذى يقول ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

إن كثيرين من الناس هاهنا فى مجال الإشادة الإلهية بسجودهم لله والتزامهم مسالك هداه، وإنها لنعمة من الله على عباده أن يكونوا كثيرين عارفين لفضله

(١) أخرجه السيوطى بسنده فى كتابه «الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية».

مقرين بأنعمه، يسارعون إلى طاعته وقد ذكرهم الله فى غير آية فقال ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وقال ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ...﴾ [ص: ٢٤].

واسأل الذين حق عليهم العذاب كم من الكائنات فى الآفاق والملكوت كله جهل جهلهم وضل ضلالهم وصد عن سبيل الله واتبع هواه وقصرت قواه، وهو حيوان أعجم أو حجر أصم أو شجر لَدن، عن أداء واجبه والقيام بما خلقه الله له ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ٢٤].

انقياد لله وطاعة وإذعان، إنها خليقة أن يأخذها الإنسان السوى من هذه الكائنات القائمة لله بأمره، وأن نشحذ للقرآن أذهاننا وهو يسوق على وحدانية الله وقدرته وحق طاعته الشواهد، ويرسل الأبصار والبصائر فى مشاهد تتابع فى الأنفس والآفاق ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩] وما يجد الأسوياء بعد بيان القرآن بيانًا.

ومع جلال الإنسان الذى خلق الله له كل شىء فى سمواته وأرضه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة وخلقه فى أحسن تقويم، وعلمه منذ علم أباه آدم ما لم يكن يعلم وأسجد له بذلك ملائكته، فقد بقى للسموات والأرض اعتبار ومجالا استبصار منذ خلقهما الله وأبقى تنويهه تعالى بهما فى مثل قوله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

إن السماوات والأرض تعطى ما لا يحيط به الحصر من مشاهد وشواهد على أن خالقهما قادر على أن يبعث الخلائق ليوم لا ريب فيه، وأنهما أكبر من خلق الناس

الذين استخلفهم الله عز وجل فى عمارة أرضه، وإصلاح كونه، وجعلهم سادتها بما علمهم من علم، وبما ميزهم به من إدراك وفهم، تقصر عنهما قوى ما سوى الإنسان الذى احتوته السماوات والأرض وفيَّةٌ لله ملهمةٌ إياه بما يُتمُّ دينه، ويعمِّق يقينه، ويجعله -بشرف العبودية لله والإذعان لأمره تركا ونهيًا- أكرم مخلوقاته، وهو وصف لا يوضع أمامه فى كفة ميزان عظمة سعة الأرض طولاً وعرضًا، وارتفاع السماوات سماءً بعد سماء، بعد أن أودع الله فى كل سماء أمرها، وزين السماء الدنيا بمصابيح نراها فى ليل ونهار شواهد اعتبار ومشاهد إجلال وإكبار.

وجزى الله خيرًا أولئك الذين يغلغلون فكرهم وينعمون نظرهم فى السماوات والأرض، فى بحوثهم لموضوع الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، إنهم أكرمهم الله يسوقون لنا من الشواهد والبراهين فى مشاهد الكون ما يزيدنا إيمانًا على إيمان وهدى إلى هدى، ويقيم حججًا لا تُدفع على جلال الله وبديع صنعه فيما خلق ومن خلق مصداق قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، ويقول ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فهل نُعمل النظر والفكر ونُرهف السمع لحديث السماوات والأرض. لنفيد موعود الله من إيمان إلى إيمان وهدى إلى هدى ومزيد علم بالحياة وما ينبغى لإبلاغها مستوى الكمال البشرى الممكن ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

❁❁❁

قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض

إن تأملْ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] يؤكد ما قاله الإمام الشوكانى إنها تحتوى على آيات دالة على كمال قدرة الله، وقدرته تعالى من مظاهر شهوده وأدلة وجوده التى استهدفناها، وهى لا تكلف الباحث عنها شططا، ولا ترهق العقلاء فى طلبها عسرًا، فقلَّ أن يجد الناظر فى القرآن الكريم آية، إلا وفيها -تلميحًا أو تصريحًا- مشهد من مشاهد جلال الله وعظمته، وقد نصح من قال:

وإذا لم تـر الهـلال فسلّم لأنـاس رأوه بـالأبصـار

وهل تخفى السماء ذلك الكائن الضخم عن ناظر؟ يقول الإمام ابن قيم الجوزية فى «مفتاح دار السعادة» فكيف صنْعه فى ملكوت السماوات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هى أحكم خلقًا، وأتقن صنعًا، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السماوات.. قال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

والإمام يلفت النظر إلى بدء الله بخلق السماوات والأرض ثم يقول (وهذا كثير فى القرآن، فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السماوات بالإضافة إلى

السمــاوات كقطرة فى بحر . . ولهذا قلَّ أن تجىء ســورة فى القرآن، إلا وفيها ذكرها، إما إخبـارًا عن عظمها وسعتها، وإما إقسـامًا بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإمـا إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيـها ورافعها، وإما اسـتدلالاً منه سـبحـانه بخلقها عـلى ما أخبـر به من المعاد والقـيامـة، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذى لا إله إلا هو، وإما استدلالاً بحسنهـا واستوائها والتئـام أجزائها وعدم الفطور فـيها على تمام حكمـته وقدرته، وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التى تتقاصر عقول البشر عن قليلهـا . . فكم من قـسم فى القرآن بهـا كقـوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البـروج: ١] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١] ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿وَالنَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] وهـى الكواكب التى تكون خنَّـسا عند طلوعها، جوارى فى مجراها ومسيرها، كنَّسا عند غروبها، وأقسم بها فى أحوالها الثلاث، ولم يقسم بشىء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر، وهو سبـحانه يقسم بما يقـسم به من مخلوقاته لتـضمُّنها الآيات والعـجائب الدالة عليه) ثم يقول بعد ذلك رحمه الله: (والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته).

ولقد أثـنى الله على المتفكرين فى خلق السـماوات والأرض، وفى المعـرضين عن ذلك فـقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ليـختار العاقل أين يضع نفسـه بين من أثنى عليهم مولاهم ومن ذمَّهم ومَقَتَهُم؟!

إن الله تعالى -فضلا منه وكرمًا- تعرَّف إلى عباده -كما يقول الإمام ابن القيم- بأنواع التصرفات ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم البينات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فارجع البصـر فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فترى كيف جعل الله خلق السماوات والأرض وما بث فـيهما من دابة من الآيات الدوال عليه سبـحانه، والذين يدبون على ظهر الأرض ويضطربـون فى أطوائها من إنس وجن وحيوان كثيرون، تراهم العيون، وتبلغهم الظنون، ويحتويهم اليقين، وكلهم سامع لأمر الله، خاضع لمشيئته، واقع فى مدى مراده، ومراد الله أبعد من أن تمدَّه أفكارنا الكليلة، ومعارفنا القليلة ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

لكن الذين يحـيـون فى السـماوات لا نعـرف من أمـرهم إلا ما عـلَّمنا العليم الخبـير.. يقول الألوسى -رحمـه الله- فى تفسيـره للآيات «وما بث» عطف على السماوات (أى ومن آياته خلـق ما بث من دابة أى حيوان له دبيب وحركـة، فيدل ذلك على وجود الدواب فى السماوات كما هى موجودة فى الأرض، ولا يبعد أن يكون فى كل سمـاء حيوانات ومـخلوقات على صور شـتى، وأحوال مخـتلفة لا نعلمهـا.. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] ومن تستعمل للعـاقل، ويقول تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وفى كلام الأستـاذ الألوسى كلام، وهو قول قيل، وأقام عليـه غيره من ظواهر الآيات الدليل، وخالفه آخرون يرون أن طبيعة الكواكب تحيل سكناها والحياة فيها، وأن هذه الأرض هى الكوكب الفرد المعدُّ للحياة، ببحـاره وأنهاره ومعادنه واعتدال حرارته وتطويعـه للأحياء، كمـا امتن الله فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [طه: ٥٣].

والعلماء يقـررون ما قد عُرف الآن أن فى الكون أراضى غيـر أرضنا هذه، وقد يكون فيها من يقابل الإنسان من الكائنات، ولكن أليس فى الكون كائنات تختلف عنا؟ وهل يجوز أن نعتـقد أن كل كائن مدرك يجب أن يكون له جـسم مادى مثل

أجسامنا؟ إن اعتقادًا مثل ذلك لا مسوِّغ له، ولا قام عليه دليل، وقد أظهر العلم ما فى الكون من الانتظام، وأن فيه عوالم كثيرة، لا عالمًا واحدًا، ولنا فى الأجرام الفلكية مثال على أنه قد يكون فى الكواكب كائنات كثيرة لا نعلمها، فسبحان من خلق هذه العوالم، وجعل لها نظامًا متقنًا وجعل فى كل سماءٍ أمرها، ألا يدل وجود هذه العوالم ونظامها البالغ على وجود بارئ هذه الكائنات، ومالك الأرض والسماوات، ومقيم أمرهما بقدرته؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١]، ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥]، يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إنها إحدى دعوات الرحيم الكريم، إلى النظر فى مخلوقاته، وتأمل شيء من كائناته، ابتغاء معرفته، ووصولاً إلى ساحة الأنس به سبحانه، ولقد صدق ابن القيم فى فريدته التى يقول فيها (من لم ينتفع بعينه، لم ينتفع بأذنه)..

وفى طليعة هذا القرن الخامس عشر للهجرة يتحدث الناس عن إمكان سكن الناس فى المريخ، وأنه صالح لذلك وبخاصة بعد أن ضاقت الأرض بالناس، وهو كلام لا يزال كلامًا ودعاوى لم يقم بعد عليها الدليل. وصدق الله العظيم ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]..

ويقول ابن القيم (ارجع إلى الله واطلبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك ولا تشرد عنه من هذه الأربعة، فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها، وما شرد من شرد عنه بخذلانه إلا منها، فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش بمولاه، والمخذول يصدر عنه ذلك بنفسه وهواه)..

فتأمل هذه الآية وأنت توقن مع ابن القيم بقوله (إذا اجتمع العقل واليقين فى بيت العزلة، واستحضر الفكر وجرت بينهم مناجاة:

أتاك حـديث لا يمل سمـاعـه　　شـهى إلينا نثره ونظامه
إذا ذكـرته النفس زال عناؤها　　وزال عن القلب المعنَّى ظلامه

وإذا كان الحكيم الكندى يقول فى الإنسان:

وتحسب أنك جرم صغير　　وفيك انطوى العالم الأكبر

مشيرًا إلى أسرار الله التى لا تتناهى فى الإنسان الذى خلق الله أباه آدم بيده القادرة وعلى صورته البشرية الباهرة، ونفخ فيه من روحه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وأسجد له بذلك ملائكته واستخلفه وبنيه عبر الأجيال فى عمارة الأرض، وأمتعه ونفعه بما منح الكونين من قوى وطاعات، عرفنا منها القليل، وتتكشف الأيام منها عما يشهد بجلال الله الذى يقول ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] قال ابن كثير: يقول تعالى منبهًا على خلق العالم العلوى والسفلى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أى جعلناها سقفًا محفوظًا رفيعًا ﴿بِأَيْدٍ﴾» أى بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد «وإنا لموسعون» أى قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى). .

ويبقى منا فى منزلة قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

إنه ليس مجرد الضخامة والسعة وإن كانتا كما مر بين يديك ميدانًا للاستخلاف ونحن بمنهج الله نسكنها ونعمرها ونحذر أن تكون ممن يشملهم مثل قوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقد امتن سبحانه علينا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. .

إن ديكارت من فلاسفة فرنسا فى القرن السادس عشر الميلادى وهو جدير بأن يُسمى أبا الفلسفة المعاصرة، وأحسبنى ممن لا يمرون سائر الكلام دون أن يُعمل

نظرًا ويشحذ فكرًا فيما يواجه من كلام الرجال. وديكارت يقول: «العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس بالتساوى، واختلاف آرائنا يرجع إلى طريقة توجيه كل منا فكره، لأن كل منا يوجه فكره فى طريق مختلف»(١).

وديكارت يكاد ينظر إلى وظيفة العقل فى الإسلام من وراء ستر رقيقة، فالعقل فى دين الله يلتقى مع النهى واللب والفؤاد فى آيات من كتاب الله تباركت وتعالى الذى يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والإمام الحارث المحاسبى (١٦٥-٢٤٣هـ) يعرض فى كتابه (العقل وفهم القرآن) آيات من القرآن الكريم تدعو إلى إعمال العقل والتفكر والتدبر والاعتناء فيقول «إنما هى آيات كثيرة تدعو دعوة صريحة لإعمال العقل فى ما خلق الله، للوصول من خلال ذلك إلى معرفة الخالق، ومتى تحققت معرفة الخالق، أصبح الإنسان عارفًا بأوامر الله فيتبعها، ومتفهمًا لنواهيه فيجتنبها» ثم يقول «فإن هناك ألفاظًا للعقل ومشتقاته ومترادفاته وردت فى القرآن صراحة أربعًا وثلاثين مرة»(٢). وأوردها على نحو ما ذكرنا، ثم جعلنا أمام ظاهرتين عقلية ومادية فقال «فالظاهرة العقلية هنا (فى الآيات التى أوردها) ظاهرة عقلية من جهتين: الأولى استدلالية، وهى تعنى الاستدلال بالمشاهد على ما وراء المشاهد وهو الله. والثانية سببية، وهى تعنى ارتباط النتيجة التى هى هذا العالم بمعطياته التى نراها ارتباطًا ضروريًا وعقليًا بالسبب الأول الذى أدى إلى خلقه وهو الله»(٣).

ويضيف المحاسبى إلى ما سبق قوله «وثانى هذه النتائج العقلية التى نستخلصها من هذين النموذجين السابقين من الآيات، هى الوضوح والبساطة فى عمليات

---

(١) رينيه ديكارت. مقال عن المنهج لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة فى العلوم -ترجمة وتقديم د. محمود محمد الخضيرى- ط٣- تصدير د. زينب محمود الخضيرى- سميركو للطباعة والنشر- القاهرة ١٩٨٥م- ص٥٦.

(٢) المحاسبى (الحارث بن أسد)- العقل وفهم القرآن- تحقيق وتقديم حسين القوتلى- دار الكندى للطبع والنشر- ط٢ بيروت ١٩٧٨م- ص١١٦.

(٣) المحاسبى -المصدر السابق- ص١١٨.

التفكير والتدبير والتعقل هذه، فكلها أمور لا تحتاج إلى تفكير عميق أو بحث غامض أو تحليل معقد، إنما هى من البساطة والوضوح بمكان بحيث تدرك بواسطة العقل إدراكًا اشبه بالعرفان المباشر، أو بالحدس بتعبير حديث، ويستدل الإنسان من خلال الصنعة على الصانع، ومن خلال الاتقان على المتقن»[1].

والإمام المحاسبى بما قال يؤكد حقيقة لا ريب فيها وهى سبق الفكر الإسلامى فى العقل ودوره فى الدلالة على بديع السموات والأرض وشواهد توحيده تبارك وتعالى على ما قرره ديكارت على قيمته الفكرية. وقد عرفت الفارق الزمنى بين المحاسبى وديكارت وأزيدك يقينًا بما جاء به ديكارت أخيرًا وهو يقول «وكنت أجل علومنا الدينية وأطمع كغيرى فى الجنة، ولكن لما علمت علمًا مؤكدًا أن الطريق إليها ليس ممهدًا لأجهل الجهلاء أقل مما هو ممهد لأعلم العلماء وأن الحقائق الموصى بها والتى تهدى إلى الجنة هى فوق فهمنا، لم يكن لى أن أجرؤ أن أسلمها لضعف استدلالاتى العقلية ورأيت، أن محاولة امتحانها امتحانًا موفقًا تحتاج لأن يُمد الإنسان من السماء بمدد غير عادى وأن يكون فوق مرتبة البشر»[2].

ولله دائمًا الفضل والمنة، وهو يوقظ النائمين، وينبه الغافلين، ويرد عن فيض عباده سكر هواهم وشهواتهم وغرورهم بشيء مما يسمونه علمًا ومعرفة، والله تعالى يقول: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨] ويقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فاللهم ارزقنا نظرًا ثاقبًا فى أرضك وسمائك وفى الأنفس وفى الآفاق لنظل نراك فى تلك المشاهد ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

❁❁❁

(١) المصدر السابق- ص١١٩.

(٢) ديكارت -مقال عن المنهج - الترجمة العربية- ص٦٢.

السماوات والأرض مرة أخرى

لفت الله الأبصار والبصائر معًا إلى استكناه السماوات والأرض باعتبارهما من خلق الخلاق العظيم فقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. .

إن السماوات والأرض وعاءان لما لا يحصى الإنسان من الأفلاك والأجرام والمنازل والأقوام، فلا عجب أن يجعلهما الله مجالاً لإنعام النظر وإعمال الفكر، فيقول ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. .

إن ذلك النظر سيفتح لا محالة آفاق المعرفة، ويحطم أغلاق الجهل، وسيمنحنا مزيدًا من الإيمان بوجود الله وعظيم قدرته وشواهد ربوبيته، ويقدم من المشاهد ما يُسْلِمُ إلى مثلها، بحيث لا يملك المرء أمام ما يرى ويسمع إلا أن تطمئن نفسه بربه موجودًا واجدًا واحدًا له الأمر كله وهو على كل شيء قدير ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. . (ومن كان له شيء وراء هذا فليطلبه) كما قال أبو حفص عمرو، فهذه السماوات التى تعلو رؤوسنا غير مرتكزة على عمد ترى، ولا على قوائم تجتليها الأبصار، كافية شافية فى الدلالة على الصانع جل وعلا، وعلى قدرته وحكمته، وانظروه فى تصريف هذه العوالم المنظورة وغير المنظورة، دون أن يشاركه مشارك، أو يعينه معين فى شيء من ذلك. . كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. .

وأمـره الذى قامت به وتقـوم السمـاوات والأرض، فلا تخـتلف ولا تضطرب ولا يخالفـان لله أمرًا ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. .

وما زالت الشمس تطلع وتغـيب وهذا القمر يتنقل فى منازله كمـا قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠].

وما أكثر ما احتلت أجهزة ومختـرعات ترصد لها الناس فى شرق وغرب ما لا نحصى من المـلايين، ومن العقول الكبـيرة، ومن الزمن -ومـا أنفسـه وأغلاه عند الجادين المستبصرين- ولا تكاد الفرحة تغمر النفوس بهذا الابتكار، وتلك الكشوف حتى تنعكس النتيـجة، ويتبدد الأمل ويتفـاقم الفشل، ويبدو الإنسان على طبيـعته يصيب مرة ويخطئ مرات، ويحسن كرة ويسيء كرات، ويبقى الجلال والكمال لله وحده وهو يصدر لكل شيء أمره، فيمـضى كل شيء وفق مشيئة الخلاق العظيم، وإن مارى بعض الناس وجادلوا فى الحق بعدما تبين ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. .

قال الإمام الشـوكانى فى تفسيره لهذه الآية «وهو بديع سـماواته وأرضه: أبدع الشيء: أنشأه لا عن مثـال، وكل من أنشأ ما لم يُسبق إليه قيل له مـبدع» وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾: أى أحكمه وأتقنه»، وكأنه -رحمه الله- قد فهم أن مراده تعالى يمضى، ومشيئته تنفذ لا محالة.

فقد أورد من معانى (قضى) قول «وبمعنى أراد، ومنه ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وأورد -رحمه الله- عدة معان لكلمة «الأمر» يرتبط منها بهذه الآية معنى القضاء، قال ومنه: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

ويوم جاء العاص بن وائل بعظم حائل فقال للرسول ﷺ وهو يفته بيده (يحا محمد: هل يحيى الله هذا بعد ما أرى؟) ونزلت هذه الآيات:

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣]..

ولقد قال الرسول للعاص: «**إن الله يحيها ويحيى أباك ويدخله النار**».

إن للآيات الكريمة أشباها فى دلالتها على الصانع الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، يقول الإمام الشوكانى فى تفسيره للآيات -بعد أن ذكر سبحانه ما هو أعظم خلقًا من الإنسان فقال: ﴿**وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم**﴾ [يس: ٨١] والمعنى أن من قدر على خلق السماوات والأرض وهما فى غاية العظم وكبر الأجرام، يقدر على إعادة خلق البشر الذى هو صغير الشكل ضعيف القوة كما قال سبحانه ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾ [غافر: ٥٧]..

وماذا عسى أن يقول الإنسان فى الله غير ما علمه الله فى كتابه، وما تناقلته الأجيال عن التفات الذين يتخرصون من القول فى الله بغير حجة أو برهان؟

إن لعلم الإنسان حدًا يقف عنده الأمناء وكتاب الله يهتف بهم ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦]..

وهل تصل معلومات الإنسان إليه إلا من أحد طرق ثلاث: طريق حواسه الخمس: السمع والبصر واللمس والذوق والشم، أو طريق الوجدان كالألم واللذة والجوع والعطش، والفرح بنعمة تقبل أو الخوف لفوات مأمول ووقوع مكروه وغير

هذه الوجدانيات، أو من طريق العقل الذى يقول فيه ابن حزم (إن من أبطل العقل فقد أبطل التوحيد)، فالعقل يعرف أنه إذا زيد على شيئين متساويين شيئان غير متساويين فالمجموعان يكونان غير متساويين..

والمعلومات التى تُدرك بهذه الطرق الثلاث لا تعين على معرفة ذات الله -كما أسلفنا- وإنما نعرف الله ونستدل عليه تعالى بوجود الكائنات، والتفكر فى نظامها المتسق المتقن ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وإذا كان يثقل على بعض الأنفس إعمال العقول فى المخلوقات استدلالاً بها على الله فإن الإمام ابن تيمية رحمه الله يقول (فى الدعاء الذى علمه الإمام أحمد ابن حنبل لبعض أصحابه: «يا دليل الحيارى دلنى على طريق الصادقين، واجعلنى من عبادك الصالحين» ولهذا كان عامَّة أهل السنة من أصحابنا وغيرهم على أن الله يسمى دليلاً، ومنع ابن عقيل وكثير من أصحاب الأشعرى أن يسمَّى دليلاً، لاعتقادهم أن الدليل هو ما يستدل به، وأن الله هو الدَّال، وهو الذى قالوه بحسب ما غلب فى عرف استعمالهم من الفرق بين الدَّال والدليل.. وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن الدليل معدول عن الدال، وهو ما يؤكد فيه صفة الدلالة، فكل دليل دال وليس كل دال دليلاً، وليس هو من أسماء الآلات التى يُفعَل بها، وإنما سمى ما يستدل به من الأقوال والأفعال والأجسام أدلة، باعتبار أنها تُدلُّ من يستدل كما يخبر عنها بأنها تهدى، وترشد، وتُعرِّف، وتُعلِّم، وتقول، وتجيب، وتحكم، وتفتى، وتقضى وتشهد وإن لم يكن لها فى ذلك قصد وإرادة ولا حس وإدراك كما هو مشهور فى الكلام العربى وغيره، فما ذكروه من الفرق والتخصيص لا أصل له فى كلام العرب.

الثانى: أنه لو كان الدليل من أسماء الآلات التى يُفعل بها.. فقد قال الله تعالى فيما روى عنه نبيه ﷺ فى عبده المحبوب **«فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يعقل، وبى ينطق، وبى يسعى»** والمسلم يقول «استعنت بالله، واعتصمت به»..

وإذا كان ما سوى الله من الموجودات: الأعيان والصفات يُستدل بها سواء كانت حية أو لم تكن، بل ويُستدل بالمعدوم، فلأن يُستدل بالحى القيوم أولى وأحرى

على أن الذى فى الدعاء المأثور «يا دليل الحيارى دلنى على طريق الصادقين واجعلنى من عبادك الصالحين» يقتضى أن تسميه دليلاً باعتبار أنه دال لعباده، لا مجرد أنه يستدل به، كما قد يُستدل بما لا يقصد الدلالة والهداية من الأعيان والأقوال والأفعال..

قال الإمام ابن تيمية «ومن أسمائه الهادى، وقد جاء أيضًا البرهان، ولهذا يُذكر عن بعضهم أنه قال: «عرفت الأشياء بربى، ولم أعرف ربى بالأشياء»، وقال بعضهم «هو الدليل على كل شىء وإن كان كل شىء عليه دليلا»..

وقيل لابن عباس: «بماذا عرفت ربك؟ فقال: من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره فى التباس، خارجًا عن المنهاج، ظاعنا فى الاعوجاج، عرفته بما عرف به نفسه ووصفته بما وصف به نفسه، فأخبر أن معرفة القلب حصلت بتعريف الله، وهو نور الإيمان، وأن وصف اللسان حصل بكلام الله وهو نور القرآن».

فجماع الأمر أن الله هو الهادى وهو النصير ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وكل علم لابد له من هداية، وكل عمل لابد له من قوة، فالواجب أن يكون هو أصل كل هداية وعلم، وأصل كل نصرة وقوة، ولا يستهدى العبد إلا إياه، ولا يستنصر إلا إياه..

فارزقنا اللهم بصر القلوب ونور العيون ويقين البصائر بالهدى إليك يا دليل الحيارى «رب إن الهدى هداك وآياتك نور تهدى به من تشاء».

❁❁❁

آيتا الليل والنهار

والليل والنهار آيتان من الآيات الدالة الشاهدة بوجوده الموجبة لعقيدة توحيده، من خلال تأمل بياض هذا وحُلْكة هذا، وقصر ذلك أحيانًا وطول مقابله، وما يغلفان من حكم وأسرار لا تخفى عن أولى الأبصار، ولقد كنا معًا فى استجلاء امتنان الله بهما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]..

فهل نلتقى مرة أخرى فى أضواء الآيات لنتأمل قول ابن القيم «تأمل الحكمة فى مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدِّر عليه أو نقص، لفاتت المصلحة، واختلفت الحكمة بذلك، بل جُعل مكيالها -أى قدرها- أربعة وعشرون ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد فى أحدهما من الآخر، يعود الآخر فيسترده منه، قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] حتى قال «فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار فى غير زمن الاعتدال، فهى خاصة فى الزمان وفى مقدار ما يلج أحدهما من الآخر»..

واختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا على ما عرفه الناس وأحسُّوه وأقاموا على أساسه مواقيت بدء أعمالهم واستئناف نشاطهم فى مقتضيات الخلافة عن الله فى عمارة كونه وإبلاغ الحياة كمالها الممكن، هذا الاختلاف يروى ما وراءه ويكشف اللثام عن وجود الصانع وحكمته، ورحمته العاصمة من أن يكون تعاقب الأيام والليالى حركة عمياء بعيدة عن الحق الذى قامت به السماوات والأرض، قال

تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧] وقال ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

إن الله تعالى هو الذى يحيى ويميت دون سواه، وينُهى وجـود من حباه الحياة، وله وحده دون أحد من خلقه تتابع الليل والنهار، واختلافهما فى فصول وأوقات، ولقـد تكرر امتنان الله بذلك فى مـواضع من كتـابه، واقرءوا سـورة البـقرة، وآل عمران ويونس، ثم هو سبحـانه يقول فى سورة الجاثية ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٥]. .

ونجد العليم الحكيم يبرز صنيعه فى آيتى الليل والنهار فهو ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحج: ٦١]، ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر: ٥]، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالتـتابع يبدو، ومـلاحقة كل من الليل والنهـار بعضهمـا لبعض، تلوح كل صباح ومـساء حين يظلم الجو بعـد غروب الشمس ومجىء الليل الذى يكسـو العالم وكأنه ثوب فضـفاض لا يبـدى من ملامح النهـار شيـئًا، فـإذا تجلّت آية الله فى الناس الذين يسكنون فى الليل، وتحقـقت منَّة الرحمن الرحيم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [الروم: ٢٣] جاء جيش الضياء يقدمُهُ بـشير الصباح، فينهزم عـسكر الظلام وينكشط الثـوب الذى غشى الحيـاة، ويمضى الإنسان إلى عـمله، وتدب الحيوانات على الأرض إلى مسارحها، ولله الفضل والمنَّة إذ يقول ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠]

وللإمام ابن القيم كلام يتصل بهذا السياق ويوضحه، نود أن يدير كل منصف معى فيه نظره وفكره.. قال:

«تأمل حال الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتى الليل والنهار، ولولا طلوعهما لتعطَّل أمر العالم، كيف كان الناس يسعون فى معايشهم، ويتصرفون فى أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور، ثم تأمل الحكمة فى غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع فرط الحاجة إلى السبات وسكون الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها فى النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.. ثم لولا الغروب لكانت الأرض حامية بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما فيها من حيوان ونبات أو صارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يُرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدأوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحرّ هذا مع برد هذا، مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما نماء مصالح العالم، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى فنبَّه عباده إليه بقوله عز وجل ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

فخصَّ سبحانه النهار بذكر البصر، لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخصَّ الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل، أو تسمع فيه الحيوانات ما تسمع فى النهار، لأنه وقت هدوء الأصوات، وجمود الحركات، وقوة سلطان السمع، وضعف سلطان البصر، والنهار بعكس ذلك ففيه قوة سلطان البصر، وضعف سلطان السمع، فقوله ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ راجعٌ إلى قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن

جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾..

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] «فذكر تعالى خلق الليل والنهار، وأنهما خلفة يخلف أحدهما الآخر، لا يجتمع معه ولو اجتمعا معا لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما، وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار، كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه، بل يُغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثًا، حتى يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عليه فيطلبه حثيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائمًا يتطالعان ولا يدرك أحدهما الآخر».

رحم الله الإمام ابن القيم فهو بكلماته تلك يضع أصابع الجاحدين على حقيقة وجود الله، فمن الذى يحرك الليل والنهار؟ ويحرك الشموس والأقمار، ويجعل الشمس سراجًا والقمر نورًا، ويجعل هذا الكوكب معتمًا وهذا الكوكب ملتمعًا يمد بالنور سواه؟!

ولقد بيَّن الله دءوب الشمس والقمر، ودورهما ظاهر فى موكب الليل والنهار من خلال امتنانه علينا بطائفة من النعم فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]..

فانظر كم مرة ذكر الله لفظ «لكم» فى هذه الآيات وحدها، لتقرر معى ألا ظلم أعتى، ولا كفر أشد من صنيع أولئك الذين لم تبلغ مثل هذه الآيات قلوبهم، ولم تحرك إلى الإيمان بالله تعالى أنفسهم..

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا..﴾ [يونس: ٦٧] فالآية تجلو صنيع الله الذى يعلم من خَلَق، فحاجة الإنسان ماسَّة إلى السكون بعد حركته، والراحة بعد تعب، والاستجمام من لغوب ونصب، فلكل شيء طاقة واحتمال حين يتجاوزها لا يصلح عمل، وتحسن حال ولا يطيب مآل، ورحم الله من قال:

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة ... ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

والنوم حين تجيء فرصته، وتحين ساعته، لا تحسُنُ مدافعته، وكل جهد فى هذه السبيل تعود على الحىّ بأوخم المصاير، وإن لحظة من نوم الليل حين تكون حياة المرء سوية، وظروف عمله على طبيعتها تعدل ساعات من نوم النهار الذى جعله الله مبصرًا يمضى فيه كلٌّ إلى عمله وبلوغ أمله وإعطاء الحياة حقها بجدِّنا واجتهادنا من دفع مسيرتها إلى الأمام.. ألسنا نلحظ مزيدًا من قدرة القادر وحكمة الحكيم، وتدبير الحليم العليم، فوق ما أبرزته هذه الآيات فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

وجلت حكمة الله، فلا يكون السكون والاستغراق فى النوم، بينما النور يكاد يذهب بالأبصار، ولا ينشط المرء إلى عمله، والظلام حالك لا تتراءى فيه المسالك.. فاللهم ارزقنا من نور هداك ما نبصر به آياتك، ونحرز به رفيع مرضاتك ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

❁❁❁

الليل والنهار في القرآن الكريم

إن حديث القرآن عن آيتى الليل والنهار موصول، ومن الخير أن نتابع تأمل النعمة التى ينصح الله بتأملها، وأن ندعو من لم يؤمنوا بوجود الله إلى ما علمنا الله منها، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

إن الله سبحانه هو الذى كشف نور الصباح من ظلمة الليل، وجعل الليل ميقاتًا للاستجمام، وسير الشمس والقمر بتقدير العزيز العليم على حال تتيح للناس أن يدبروا مصالحهم ويحددوا أوقاتها بدءًا ونهاية، فما يقدر على هذا النظام والدقة إلا الله. ألا تراه سبحانه وهو يختم الآية بقوله ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، العزيز الغالب الذى لا يعجزه شىء، والذى يمضى مراده فى كونه وعباده على علم بما فيه صلاح أمرهم فى معاشهم ومعادهم. والإمام الشوكانى رحمه الله يذكر هذه الآية وما قبلها ثم يقول -وقد شرع فى تعداد عجائب صنعه تعالى-:

وفى آية سورة الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ...﴾، يقرر الله تعالى أنه جعل آية الليل فى عدم نوره حتى كأنه ممحو، بينما جعل النهار بنوره وكأنه مبصر، للحكم التى يبرزها قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢] ولم لا يكون النوم حين يغلب سلطانه من فضل الله، فإنه لا أنعم للبال حين ننجز الأعمال ونضع ما على عواتقنا من واجبات وتبعات من أن نعطى النفس حاجتها من النوم، ومعرفة السنين والحساب ضرورية

لكى يؤدى كل إنسان عمله فى أوانه، ويقوم بواجبه فى إبَّانه وقبل انفراط زمانه خشية تعذر إمكانه.. وما أجل ختام الآية بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢] إنه تقدير العزيز العليم الذى يقوم كل شىء بتدبيره وحده بلا خلل ولا إبطاء ولكن بدقة ونظام يبعدان إلى غير مدى أن يكون الليل والنهار وغيرهما من حركات الكون تمضى بمحض الصدفة البلهاء.. ومرة أخرى ماذا قال العلم الحديث؟!

قال صاحب كتاب «العلم يدعو للإيمان» المشير التركى أحمد عزت: «تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة كل أربع وعشرين ساعة بمعدل نحو ألف ميل فى الساعة، والآن نفرض أنها تدور بمعدل مائة فقط فى الساعة.. ولم لا؟!. يكون عندئذ ليلنا ونهارنا أطول مما هما الآن عشر مرات، وفى هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا فى كل نهار، وفى الليل يتجمد كل نبت فى الأرض».

ألا ترى كيف لا تأخذ ربنا -كما قال- سنة ولا نوم؟! وكيف أن عينه سبحانه ساهرة؟؟ وأن مشيئته حكيمة مدبرة، ولن نبعد عن السياق ونحن نستأنس بما يزيده تألقًا وإشراقًا من قول ابن القيم رحمه الله: «ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار، وهما من أعجب آياته، وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما فى القرآن لكم ويبديه كقوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] وهذا كثير فى القرآن.. فانظر فى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته.. كيف جعل الله الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم، فتسكن فيه الحركات، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس، وتستريح من كد السعى والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاءها فالق الإصباح سبحانه وتعالى

بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح، فيهزم تلك الظلمة، ويمزقها كل ممزق ويكشفها عن عالم فإذا هم مبصرون، فينتشر الحيوان ويتصرف فى معاشه ومصالحه، وتخرج الطيور من أوكارها، فيا له من معاد ونشأة دالين على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر».

سبحانك اللهم، وتعاليت عن أن تخفى، وتلك بعض مشاهد وجودك، وشواهد قدرتك، فتفصيل ذلك يكبر عن طاقة الإنسان مهما بلغ علمه، واتسع إدراكه وفهمه، وفى آيات من سورة الأنعام يضيف الله مشاهد وشواهد فيقول تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنعام: ٩٧] وفى سورة النحل: ﴿ **وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النحل: ١٦-١٨].

فاهتداء الناس بالنجوم فى الليل، من الآيات التى تدل على الصانع ووحدانيته وكمال قدرته.. وكم يعجب المرء ممن لا تهديهم النظرة فى هذه الآيات إلى بارئ الكون ومبدع الأرض والسماوات؟

يقول الإمام الشوكانى فى نهاية عرضه لهذه الآيات من سورة النحل: «لما عدد الله الآيات الدالة على الصانع ورحمته وكمال قدرته أراد أن يوبخ أهل الشرك والمعاد فقال: ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ١٧] أى أفلا تذكرون مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته فتستدلون بها على ذلك، فإنها لوضوحها تكفى فى الاستدلال بها مجرد التذكير لها.. ثم لما فرغ من تعديد الآيات التى هى بالنسبة للمكلفين نعم قال ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [النحل: ١٨] وقال: «قال العقلاء إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنغص النعم على الإنسان، وتمنى أن ينفق الدنيا كلها لو كانت ملكه حتى يزول عنه ذلك الخلل، فهو سبحانه يدبر بدون هذا الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق

حصـر بعض نعم الله عليه؟ أو يقدر علـى إحصائها ثـم يتمكن من شكر أدناها؟

إن الذين يعـجزوون عن شكر الله على الـنعمـة وهم يحاولون ذلك ويتـمنون بلوغه يؤدون أعظم الطاعات، ويتقـربون من ربهم بأرفع القربات.. وقد روى عن الكليم موسـى عليه السلام أنه قـال: «والله لو أن وراء كل شعرة فـى بدنى لسانا يشكر الله ما وفيـته عشر معـشار ما ينبغى له» وقال بعـضهم: يارب علمنى كيف أشكرك؟ فقيل له إن عجزك عن شكر الله هو منتهى شكره.

ويا ويح من يتفيأون ظلال أنعم الله، ولا يهتدون إليه سبيلا..

وتعال يا أخى نردد مع الإمام الشوكانى فى هذا السياق هذه الضراعات:

«يا ربنا هذه نواصينا بـيدك خاضعـة لعظيم نعمك، معـترفة بالعـجز عن تأدية الشكر لشىء منها، ولا نحصى ثناءً عليك أنت كـما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعـبير بالشكر لك، فـتجاوز عنا واغفـر لنا، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك ألا تفعل ذلك نهلك، بمـجرد التقصير فى شكر نـعمك، فكيف بما فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك، والانتهاء عن مناهيك».

ثم لحظ الإمـام قـوله تعـالى فى ختـام هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨] فقـال: «إن الله كثيـر المغفرة لا يؤاخـذكم بالغفلة عن شكر نعـمه، والقصور عن إحـصائها، والعجز عن القـيام بأدناها، ومن رحمته إدامـتها عليكم وإدرارها فى كل لحظة وعند كل نفس تتنـفسونه وحـركة تتـحركونهـا، اللهم إنى أشكرك عدد مـا شكرك الشاكـرون بكل لسان فى كل زمان، وعـدد ما سـيشكرك الشاكـرون بكل لسان فى كل مكان، وقد خصـصتنى بنعم لم أرها على كثـير من خلقك، وإن رأيت منها شيئًا على بعض خلقك لم أر علـيه بقيتها، وإنى لا أطيق شكرك فكيف أستطيع تأدية أدنى شكر أدناها؟ فكيف أستطيع أعلاها»؟

على أن الشكر لله يوجب مزيد كرمه ونداه فى الحياة، وفى ما وراء الحياة، وهو تعالى يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ [إبراهيم: ٧].

والله تعالى يحب الشاكرين ويقول فى الحديث القدسى: «عبدى لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه».

إن الليل والنهار من أنعمه عز وجل، ونحن نشكر نعمة الليل حين تؤدى به وظيفة السكن واللباس ولا نجعله نهبًا مباحًا للشيطان وهو يدعو إلى العربدة والخلاف عن أمر الله.

ونحن نشكر الله على نعمة النهار حين نمضى فى نوره إلى ميادين الاستخلاف عن الله وعمارة هذا الكوكب إلى المدى الذى يعين الله عليه فلا نجعله مجالا للتعطل والتبطل والقعود عن العمل الذى تؤديه جميع الكائنات كما ألهمها الله. فهل عرفنا الليل والنهار كما يرضى الله؟

وهل أدركنا منة الله -سبحانه- فى مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

❁❁❁

وبالنجم هم يهتدون

قد يرخى أقـوام لأقلامـهم الأعنة، وتتعدد ضـروب أقوالهم بعـد أن أعملوا عقـولهم وقلوبهم فى منطلقات تـأمل واعٍ، ونظر عميق، لكن ذلك كـله ومثله معه ينفد قبـل أن تنفد آيات الله المجلوة الدالة على شواهد وجوده جلت آلاؤه، وآياته المتلوة فى كتـابه الباقى الذى تأذَّن سبـحانه بحفظه فـقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. . وبقدر ما تكون هذه المـشاهد نماءً لعقيدة الإيمان فى الأنفس، فإنهـا حجة على آخرين فى عاجـل وآجل بعد أن قدَّم ناس من شتى جوانب الدنيا فى أزمـنة مضت وفى أيامنا الماثلة، براهينهم على جلال ما جـعله القرآن طريقًـا إلى معرفـة الله والإيمان بوجوده. ، وخـذوا هذه النجوم مثلاً. .

هذه النجوم التى تطرز بساط السماوات فى جنح الليل. كيف لا يدرك هؤلاء الناس دلالتها؟ ولا يسمعون وحيهـا الجهير المسمع؟ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]. .

حين تتداخل الأشياء، وتتشابه، وتخفى المـسالك، ولا تبدو حقيقةٌ هنا أو هناك فى بر أو بحر، فى عمـران أو قفر، تشتد حـاجة الإنسان إلى الله، إلى شىء من نوره، يكشف الظلمات، ويبدد الدياجى ويتراءى فيه الذين تفرض عليهم ظروفهم الخـاصـة أن ينشطوا، وإخـوانهم يأخـذون حظهم من نـوم لابد لهم منه بعـد أن ارتفعت إلى الله منهم فى شتى الميادين صوالح أعـمال، يقول الإمام الشوكانى فى تفسيره للآية «أى خلقها للاهتداء بها فى ظلمات الليل عند المسير فى البر والبحر، وإضافة الظلمات إلى البر والبحر لكونها مـلابسة لهما. . أو المراد بالظلمات اشتباه طرقهما التى لا يُهتدى فيها إلا بالنجوم، وهذه إحدى منافع النجوم التى خلقها الله لها، ومنها مـا ذكره الله فى قوله ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧]

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ..﴾ [الملك: ٥] ومنها جعلها زينة للسماء، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ التى بينَّاها بيانا مفصلاً لتكون أبلغ فى الاعتبار ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بما فى هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته» والإمام الشوكانى يرتفع بآيات الله فى النجوم عن صنيع أولئك الذين يخدعون العامة بها ويستحلُّون أموال السذَّج البلهاء وهم يقرءون لهم ما يسمونه الطوالع والبروج وغيرها، وقد سلط الإمام ابن تيمية فى الجزء ٣٥ من فتاواه، الأضواء على هؤلاء الآثمين.. وهذا عالم آخر يقول «فائدة النجوم الاهتداء بها فى ظلمات البحار وقطع امتداداتها، فلولاها لما أمكنت المواصلات بين البلدان السحيقة التى يترتب على اتصالها ببعضها قيام أوَد الحياة على هذه الكرة»..

ويقول آخر «من الدلائل الدالة على كمال القدرة والرحمة والحكمة، أنه تعالى خلق هذه النجوم لمنافع العباد وهى:

أولها: أنه تعالى خلقها ليهتدى الخلق بها إلى الطرق والمسالك فى ظلمات البر والبحر حيث لا يرون شمسًا ولا قمرًا، لأنهم عند ذلك يهتدون بها إلى المسالك والطرق التى يريدون المرور بها..

ثانيها: هو أن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة ويستدلون بأحوال الكواكب فى الليالى على معرفة القبلة وسائر المصالح الدينية والدنيوية..

ثالثها: أنه يمكن أن يقال إن المعطِّل ينفى كونه تعالى فاعلا مختارًا، فهو تعالى خالق هذه النجوم لنهتدى بها فى إثبات ذلك ولكن لأننا نشاهد هذه الكواكب مختلفة فى حالات كثيرة فبعضها سيارة وبعضها ثوابت، والثوابت بعضها فى المنطقة وبعضها فى القطبين، وأيضًا فالثوابت لامعة، والسيارة غير لامعة، وبعضها كبيرة درية عظيمة الضوء، وبعضها صغيرة خفية قليلة الضوء، وأيضًا قدروا مقاديرها على مراتب كبيرة، إذا عرفت هذا فنقول: إن الأجسام متماثلة، ومتى

كان الأمر كذلك كان اختصاص كل واحد منها بصفة معينة دليلاً على أن ذلك ليس إلا بتقدير الفاعل المختار».

وأتساءل: هل فى كلام هؤلاء العلماء غير ما أجمله الإمام الشوكانى؟ وما أحسب شيئًا فى هذا الكلام المبيَّن افتراءً على الله تعالى.. ولقد كان استجلاء إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ابتداءً من رؤية كوكب، طريقًا إلى إيمانه الواثق بالله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

ففى الظلمة الحالكة تبدو النجوم، هذه التى يقول الله فيها ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ..﴾ [الملك: ٥] ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦، ٧]..

وخليل الرحمن فى مجتمع الشرك الذى لم يسلم منه حتى بيته، بيت أبيه وأمه وقومه الأدنين، كان يبحث عن المعبود بحق، فقد ضاق ذرعه بحجر أصم بليد لا يبدئ ولا يعيد، ولا يضر ولا يفيد، يرجوه قومه ويعبده أبوه وأمه، فراح يرصد حواسه، ويوقظ مداركه، ويرسلها جميعًا فى رحلة عبر السماوات والأرض فى طلب الحق، وابتغاء الوصول إلى الخلاق الرزاق القادر على كل شىء، وهى وسائل ما أجداها وأقدرها على أن تتأدى بنا إلى الذى يسترعى إليها الانتباه، ورضيها -لكفايتها- وسائل إليه، وهل ميز الله ابن آدم على سواه من مخلوقاته، وأخدمها إياه إلا بالعقل الذى يحكم هذه الحواس ويمنعها من الانطلاق على غير أساس من إشارة القلب أمير البدن، وصدق الله العظيم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...﴾ [سبأ: ٤٦].

إن الانطلاق من الكوكب إلى القمر إلى الشمس، هذه المقومات المادية التى تغلغلها العقل، وتعمق مظاهرها وآثارها رحلة خيِّرة أرسى بها خليل الرحمن عصاه على أرض الإيمان بالله وحده، والقرآن الكريم يوجه النظر إلى ما يحسُّ فى الكون، سمائه وأرضه، وإنسانه وحيوانه، ولم يحفل القرآن بآية واحدة لشىء وراء الحس، وفى المراحل الأولى للدعوة كان النبى يخاطب المشركين بقوله ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

فالإبل فى الإقامة والظعن، والجبال من قرب وبعد، والسماوات والأرض اللتان لا يخرج عن نطاقهما إنسان الآن وفيما غبر من الزمان، هى أولى المحسوسات التى لفت النبى إليها أنظار مشركى قريش بإذن ربه، وتتابعت الأيام، واتسعت الأفهام، فخاطب صلوات الله عليه هؤلاء بمثل قول الله تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ**﴾ [الطارق: ٥] ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ**﴾ [عبس: ٢٤] ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾ [يونس: ١٠١]..

ورحم الله ابن القيم فهو يقول «تأمل حكمة الله تبارك وتعالى فى هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها، وأنها زينة للسماء، وأدلة يُهتدى بها فى طرق البر والبحر، وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط، ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت، ثم تأمل تسخيرها منقادة بأمر ربها جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه أن لا تخرج عنه، فجعل منها البروج والنيازك والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط، والأبيض الأزهر، والأبيض الأحمر ومنها ما يخفى على الناظر»..

وكم كانت النجوم فى أعصار بعد خليل الرحمن هادية دالة على الله سبحانه وتعالى، مثمرة كمال الخشية منه واليقين بأنه تبارك وتعالى من وراء سائر الكائنات، فلقد راود بعضهم امرأة عن نفسها وخدعها حتى أخرجها من دارها التى تخشى أن تقع عين قريب أو بعيد عليهما وهما يحادّان الله ويخرجان على أدب

التصـون والعفة، فخـرج بها إلى الصحراء وهـنالك أمرها بأن تمكنُه من نفسها فـأبت، فقال لها: وماذا تخشين وما يرانـا إلا الكواكب فقالت: فأين مكوكبها؟!..

إن مكوكب الكواكب هو الله الذى يؤنس قلوب المستغفرين بالأسحار ولا تخفى عليه خافية، أولئك الذين يجهلون أنه تعـالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء..

وقد تكون التجـربة الشخصية مما يزيد الذين آمنوا إيمانًا بجـلاء قول الله تعالى: ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

❁❁❁



المؤمن.. بين آيات الله المجلوة وآياته المتلوة

المؤمن يجد نفسه من ذكر الله بين حالين، فهو يستحضر عظمته وجلاله وقيوميته ويوجل قلبه وتأخذه بعض مشاهد الهيبة والرهبة إلى المدى الذى يقلع فيه من فوره عن الإثم والفجور والغفلة عن الله إلى المتاب الحق والاستغفار الذى يفضى به لا محالة إلى رحاب ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، وجل الله الذى **«يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»**[١] كما قال معلم الناس الخير سيدنا محمد ﷺ..

والمؤمن يتمثل فى حاله المثل لذلك، رحمة الله وإحسانه وكرمه وحنانه، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها وهو رب العالمين الرحمن الرحيم وسعت رحمته المؤمن والكافر وأرخى سُتور رأفته -إلى حين- على من بارزوه بالعظائم وحاربوه بنعمه، ويجد المؤمنون أنفسهم غادين رائحين ممسين مصبحين فى بحبوحة قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وكم كان رسول الله وهو إمام المؤمنين يواجه من شدائد الحياة وضلال المشركين ما يفزع منه إلى ذكر الله فيجد الوجود صفواً والكون رَخوا، والأمور تجرى على عين الله فى مجراها الوادع الناعم، وهو صلوات الله عليه يعلّم المسلمين إنْ حَزَبَهَم أمر أو واجههم مكروه أن يفزعوا إلى الصلاة، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما: وكان يقول **«أرحنا بها يا بلال»**، فيها سكينة النفس وراحة البال، وقهر ما يواجه من مصاعب ثقال، لا تنال بالطرب والغناء واصطناع وسائل اللهو التى تغطى على الأسماع والبصائر وكرام المشاعر ومعانى إنسانية الإنسان الذى يحرص

(١) رواه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى.

على أن تأخذ نفسه على كل حال مما شرع الله له، وعبَّر عنه قوم قارون وهم يوقظونه من سكر هواه، واغتراره بما أوتى من حظوظ الحياة فقالوا ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا . .﴾ [القصص: ٧٧]، ذلك هو توازن سعى الإنسان وعمله الذى يزداد به صلاح الكون ورخاء العيش وأمن الناس، قبل أن يقال للمرء ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]. .

إننا أبناء الأرض ينبغى أن نبرَّها ونحسن إليها، وندفع بمنهج الله مسيرتها، لنكون سادتها، ومالكى أزمَّتها، لا أن نكون صرعى تبرجها وفتنها ومظاهرها الكذاب، فقد خلق الله لنا ما فى الأرض جميعًا وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة واستخلفنا فى الارتفاع والانتفاع بأرض شق بحارها وأجرى أنهارها وفجاجها وسبلها، وأخرج الزروع والثمار فى مواضع منها تخرج حب الحصيد، وجعل من غيرها الثمر النضيد، وأبرز لنا شواهد قدرته ورحمته فقال ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، والإمام محمد عبده -رحمه الله- يعرض مثل بذرة البطيخ وبذرة الحنظل، توضعان فى حيز محدود من الأرض يرويها ماء واحد، وتهب عليهما رياح لا تختلف، ثم تكون ثمرة البطيخ حلوة المذاق، وثمرة الأخرى الحنظل المر المذاق، وتعالى الله الذى يقول ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. .

وكم أوجب الله أن ننظر فى أنفسنا وفى الآفاق، لنروى فى أعماقنا نبتة الإيمان، ونقدم لغرسة اليقين ما يزيدها رسوخًا فى الجوانح، وقدرة على دفع الجوارح إلى طاعة الله الذى يعز من أطاعه ويذل من ضل عن سبيله وآثر هوى نفسه على هدى الله . .

إن لله تعالى آيات متلوة فى كتـابه يقول فيها ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]..

وفى دنيا الناس من نفذ القـرآن إلى كل مجامع الحس والإدراك فيهم فـمشوا فى نوره، وقادهم قودًا رقيـقًا إلى حقائقه فى أنفســهم وفى الآفاق من علوٍ وسفلٍ ومن بين أيديهم ومن خلفهم حتى لكأن الكون ما علمنا منه وما لم نعلم يقرأ كلمات الله المتلوة على نحو يستـقيد الأسماع والأبصار والبـصائر جميعًا، فـيزداد الذين اهتدوا هدى وتطمئن قلوبهم بذكر الله، على حال لا يتـعارض وحال أولئك الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]..

هكذا وصف الله من قـضى أنهم يسـارعون فى الخـيرات التى يشـمرون لهـا، ويستهدفونها وفى قلوبهم وجل من أن تُرد عليهم وأن لا تقبل منهم، كما كان أول الصحابة إسـلامًا وأعظمهم إيمانًا أبو بكر -رضى الله عنه- يقـول «لو كانت إحدى رجلى فى الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله»، ويوم استقل الصحابة صالح عملهم بعد أن عرفوا من أمهات المؤمنين حاله مع الله قالوا: وأين نحن من رسول الله، وآلى بعضهم على نفسه أن يصوم فـلا يفطر، وقال غيرهم ونحن نقوم الليل ولا ننام، وقال غيرهم ونحن نعتزل النساء فلا نتزوج، وبلغ ذلك النبى ﷺ فقال: **«إنى لأخشاكم لله وأخوفكم منه وأنا أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء»**..

والمؤمن بهذه المثابة يأخذ بمجامع نفـسه قول الله تعالى فى الحديث القدسى **«أنا عند ظن عبدى بى»**[(١)]، وأصدق القائلين سبحانه يقول ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ

(١) رواه البخارى من حديث أبى هريرة.

حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]، ويقول الرسول ﷺ «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»[1]..

وإنعام النظر فى آيات الله المتلوة وآياته المجلوة يحفز منه العزم على أن تكون له تلك الآيات قوىً دافعة، وطاقات رافعة إلى مستوى الإيمان الحق الذى يؤنس القلب برحمة ربه التى أطمعه فيها وقلَّبه بين جوانبها منذ كان فى رحم أمه وفى ظلمات ثلاث ثم صار وليدًا شدَّ الله به عرى المودة بين أبويه، وشب فى رياض حنوهما وإحسانهما حتى بلغ أشده وغدا وراح يتقلب فى رحمة الرحمن الرحيم المتمثلة فى الدين العظيم والقرآن الكريم، وفى أنعم مادية لا تحصى ولا يحيط بها الحصر وهى تزيد بشكر المنعم، وقوله الحق ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

❁❁❁

(١) رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصارى.

التجربة الشخصية.. دلالة لا تدفع

كم تكون التجربة الشخصية جلاءً للحقائق، وضياء بين يدى ما استغلق على الناس فَهمه واستعصى علمه، وكم مرة قرأت قول الله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦، ١٧] فأجد منها نورًا يضىء الزمان والمكان، وأروح ألفت إليه من كانوا فى الصبا الباكر يأنسون إلىّ ويحفُّون حولى ونحن نجلس أمام بيتى كل مساء حين كنا نعود من معاهدنا وكلياتنا إلى قرانا.. والليل فى الريف بليل النسمات جميل السمات، وادع هادئ يعين على التأمل، ويستدعى النظر فى كل ما يبلغه البصر ويقع فى مجال فكر الإنسان..

وهو إلى ذلك مجتمع الذين ما يزالون من الفطرة النقية التقية عن كثب، من أولئك الشبان والرجال الذين كانوا إلى يومنا يحوطون شداة العلم وطلاب المعرفة بقلوبهم وأجسامهم معًا، ويتسقطون كل كلمة تنفرج عنها شفاهم، ثقة منهم فى أمانتهم وطهرهم وعفتهم، وحسن إدراكهم لقضايا العلم التى هى فى متناولهم..

وكم أخذنى العجب وما يزال يأخذنى، من أقوام لم يمضوا مع النجوم فى مسيرتها الهادية إلى الحى القيوم، إلى الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] حتى كانت التجربة المثيرة التى أجملها فى هذه الكلمات..

لقد دعانى واجب الدعوة إلى الله بعد أن عدت من لبنان عام ١٩٦٢م أن آخذ الباخرة من السويس إلى الطور من سيناء المباركة -وقد ردَّ الله غربتها وفك إسارها -وكانت الباخرة التى أقلتنا فى إحدى الليالى بالية قديمة تنقصها الوسائل التى لابد منها لقيامها بمهمتها فى البحر الأحمر، وكنت أصحب أحد الأخوة الدعاة وركبًا

مختلفى المشارب والميول والثقافات والاختصاصات، التف بعضهم حول بعض **«الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**(١) كما يقول المعصوم صلوات الله عليه. .

وكنت أود وزميلى أن نكون للجميع صديقين، لكنهم سارعوا فانكشفوا وبدا منهم ما يريب، فلم نخاصمهم أول الأمر، بل رحنا نتلطف بهم حتى لم نجد للتلطف جدوى، فآويت إلى زميلى وآوى إلىّ ولاذ بنا اثنان فقط من ركب كثير، وعدد غير يسير، ودعونا الله أن يلطف بنا فى سفرنا، وأن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. . وأخذت وصاحبى عَشاءنا وصلينا عِشاءنا، وعكف كل منا على مصحفه يتلو آياته، ويتفهم عبرها وعظاتها، وربما رجع أحدنا إلى أخيه يُشركه فيما فهم، ويستزيده شيئًا مما أدرك وعلِم، والمرافقان الآخران يسمعان ويسهمان فى الكلام بقدر ما يفهمان، وظل ذلك شأننا، انصرافًا إلى الله من لغو اللاغين ولهو اللاهين، ووقاية من حمَّى الأرواح التى يقول فيها ابن القيم رحمه الله «إن جوار من لا تألف هو حمَّى الأرواح». .

والصالحون غرباء بين أهليهم وذويهم الذين لا يمضون فى الحياة على طريق، وهم كصالح فى ثمود، أو كمصحف فى بيت زنديق كما قيل. ورحم الله الذى قال:

وما غربة الإنسان فى البعد والنوى ... ولكنها فى قرب من ليس من شكلى

وإنى غريبٌ بين بَسْتٍ وأهلها ... وإن كان فيها منزلى وبها أهلى

. . وفى لحظة من اللحظات حدث هرجٌ ومرج، وبدا على قسمات وجوه رجال الباخرة قلق وذهول ولبسوا ثيابًا خاصة استعدادًا للطوارئ، وتقلدوا أسلحتهم، فقد كان فى الباخرة عدد لا يُستهان به ممن يحسبون حسابهم، ويحذرون تمردهم وانقلابهم، وعرفت والجميع أن الخطر محدق بنا، والشر فاغر فاه، فربان السفينة لا يكاد يعرف طريقه، من الظلمة الحالكة فى ليلة ضريرة النجم كما يقولون، وأجهزة رصد الباخرة غير ميسورة. .

(١) رواه البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها.

وجزى الله الشدائد كل خير، فقد جمعت على الله القلوب، واتجه الذاكرون واللاهون إلى السماء قبلة الدعاء يسألون ربهم النجاة، وتداركت رحمة الله الداعين، وهو فضل منه سبحانه على الأبرار، وابتلاء بعد بلاء لعبيد شهواتهم وأهوائهم.. وانجابت الغاشية واهتدى الربَّان إلى السبيل بعد ضلال مبين، وزف بذلك البشرى إلينا وهو يقول: كان بيننا وبين شاحنة بترول ضخمة نصف متر فقط ولولا لطف الله لارتطمنا بها فكان ما كان، ولولا بصيص نور، وظهور نجم لساء المصير. وحمدنا الله الذى بنعمته تتم الصالحات..

ولم يمض زمن حتى عاد اللاهون إلى لهوهم وغفلاتهم، وكأن شيئًا لم يكن، وكأنما أراد الله بهذه الرحمة التى تفضَّل بها علينا أن يكشف عن معادن فى الناس يقول فيهم ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]..

أجل.. كانت لحظات من الأشر والبطر تمزَّق فيها اللثام عن لؤم أقوام، فقد عاد طاقم الباخرة إلى تأهبه لمواجهة الخطر، وعاد الغافلون يعوون كما تعوى الكلاب، ويصرخون فى جزع هالع كما تصرخ الثكالى، ويسألون الله إحسانه، ويبرأون إليه من آثامهم، وتذكرت من فورى هذه الآيات ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢١-٢٣]..

غارت النجوم التى يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر لحظة فكان ما كان، وبدا الإنسان على طبيعته التى لمسها القرآن، واستحال الهدى ووضوح الرؤية على ربان الباخرة، وجلونا فى لحظات من كلام الله الذى يعلم من خلق وجوهًا من حقها

وصدقها وفى بعـضها بلاغ ومعتبر لقوم يتـفكرون.. ولقد تسألنى علام انتهت التجربة؟ والحق أن الغفلة عن الله حين تبلغ مبلغها من بعض القلوب، تصم الآذان، وتُغشِّ على العـقول والأذهان، فـلا تصنع معـها العظات والعـبر القوليـة والعمليـة، إلا كمـا يصنع ذلك المُرْقِدْ، أو إبر التـخدير التى يعـمد إليـها الأطباء، عند اشتداد ألم، أو الاستعداد لإجراء عملية جراحية..

إن الاسـتطراد مع هذه التجـربة وراء هذا المدى الكاشف مما يخـرج عمـا أردناه ههنا، وهذه الباخرة التى أذكرها الآن جليًا والأذهان تكاد تتمزق أمام العبارة المشئومة فى البحر الأحمر التى أود صـادقًا أن يعطى قضيتها المسئولـون حتى يكونوا مسئولين بحق يستوجبون الحمد والثناء ولا أقول أكثر من هذا -هذه الباخرة على قدمها واحدة من هذه الفلك التى يمخر بعضها عُباب المحيطات، وكأنها مدن عائمة فيها كل ما فى المدن من مرافق ومنشـآت فتقـينا حر الصيـف، وتقى من برد الشتاء، وترد وحـشة المنفرد عن الأهل فوق أمـواج تقسو وتلين، وبين أجواء مسـتها آيات يونس، وزادت عليها الآية التى ضـرب الله فيها الأمثال بهوان أعـمال الكاذبين فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]..

وقد قيل إن الآية هدت إلى الإسلام أقوامًا عاشوا تجـربتها، وواجهوا واقعها فى أحد المحيطات فرأوا بأعينهم البحر الـلجىّ والأمواج تلفُّه ويغشاها هى موج آخر، فإذا امتزجت هذه الأمواج وانفصلت عن بعضها لحظة رأوا السحاب سابغ الجلباب أسود الإهاب، يضـاعف ما سـبقه من ظلمـات، حتى لا يكادون يرون أصـابعهم حين يدنونها من أبصارهم..

فلقد عـرف هؤلاء القوم أن مـحمدًا نبىُّ الله ورسـوله يوحى إليه مـولاه ما لا يكون فى متناول إدراك سـواه، وإلا فكيف يستطيع إنسان أمى، لم يركب البـحر، ولم يعـبر المحـيطات، ولم يرحل رحلتـهم إلى أواخـر المسكونة.. أن يصف هذا الذى يرونه واقعًا لا ريب فـيه.. وإنها لشهادة يقدمـها هؤلاء بأن القرآن وحى الله

إلى مصطفاه حقًا.. وكم من آية فى كتاب الله امتن الله بها على عباده بالبحار والأنهار، وبالرياح والأمطار، وبالجوار المنشآت فى البحر كالأعلام.. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١-٣٤] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ..﴾ [البقرة: ١٦٤] ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤] ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩]..

وفى سورة العنكبوت يبرز الله بعض طباع خلقه فيقول ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥، ٦٦] ويالجحود الإنسان!! الذى يقولون فيه.

وما سمى الإنسان إلا لِنَسْيه ... ولا القَلْب إلا أنه يتقلَّبُ

وقالوا:

(سُمِّيت إنسانا لأنك ناس).

وقـالوا: (إن أول ناس أوَّلُ النـاس) وجل الله الذى يقـول: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وعى الله أن يفتح آذان الغافلين لمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⑱ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

❁❁❁



الباب الثانى

من آيات الله في خلقه

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

- سبحانك أنت الشاهد الذى لا يخفى
- اعرف نفسك أيها الإنسان
- أنت أيها الإنسان
- سبحانه كلفنا بما يشرفنا
- نحن أبناء الأرض
- وفى كل شىء له آية
- الزمان مرآة كبرى
- الإمام ابن رشد ومشاهد الوجود

سبحانك.. أنت الشاهد الذى لا يخفى

إن لله تعالى الفضل والمنة منذ أعطانا الإدراك السوى لما شاء سبحانه من أسراره فى الأنفس والآفاق، وجعل التذكر والتدبر والنظر منافذ إلى مزيد الإيمان بالله وقدرته وحكمته ورحمته بمن خلق، فقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ..﴾ [فصلت: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] والله تعالى يقول ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١] لنتأملها، وننعم النظر فيها، ليتضاعف اليقين أنها مشاهد جلال وكمال وجمال وحكمة وقدرة، وتفرد بالخلق والإيجاد حيث يقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا..﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ..﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢] ولكان نزاع ما نفى الله تعالى، مظهر الفساد والاختلال والاعتلال فى الحياة والأحياء، وقد يبدو فى الأحياء خلل وعلل وتنافس هازم كان من الممكن أن يكون مع الإيمان بانيا دافعًا لمزيد أنعم الله، لكن السماوات والأرض وما فيهن من كائنات تمضى فى طريقها الذى فرضه الله لها، وأقام أمرها عليه. ما اختل أمر الحياة ليلاً أو نهارًا، صيفًا أو شتاءً، طرفة عين.

أجل إن أمر السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن، وأمر ما علا وما نزل، هو شأن الله القائم على كل نفس بما كسبت، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ١-٤].

وجل الله الذى يتابع مشاهد حكمته ورحمته وقدرته ليلفت أبصار عباده وبصائرهم إليه فنرانا فى صدر سورة الرحمن بعد منَّة تعليم القرآن قبل منَّة خلق الإنسان ثم تعليمه الإعراب والبيان لما يريد، أمام قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٥-٧].

فى الكون علو وسفل ما ينبغى أن نتأمله ونتعلمه حتى نتصرف على أساس مما تعلمنا وتأملنا. ، ومرة أخرى فكل ما تراه عين وتسمعه أذن ويقع فى متناول الفكر والإدراك منك، يمضى فى طريقه وفق سنن إلهية ما تخلف عنها ولا انحرف قيد أنملة، ولا ضل سبيله، ولو توقف لحظة لهلك الناس، وما هلك الناس، وكيف يهلكون والله تعالى يمتنُّ علينا بقوله ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

تمضى الحياة على نهجها السوى، فتطلع الشمس، ويتنفس الصبح منذ كانت الحياة وإلى يوم الناس هذا، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ويتسع النهار، وينقضى الضحى، وتقفوه الظهيرة، ويدنو الأصيل رويدًا رويدًا، ثم يلف الشمس ستار الغروب، ويغشى الليلُ الحياة ويسطع القمر، ويلتمع النجم، وتزخر البحار، وتجرى الأنهار ولا يلبث الإنسان أن يضع البذرة فى أطواء الأرض، ويودعها بيده الثرى، فإذا هى تضرب برأسها الغض الطرى، التربة المتلبدة الصلبة فترعاها عين الله الذى يقول ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ⑥③ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ⑥④ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٥]، ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ

الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

وكم تصير البذرة الصغيرة شجرة تظل وتثمر وتمنح الخير بقدر ما أودع فيها ربنا سبحانه من قوى واستعدادات، وتبدو مشاهد وجود الله وشواهد توحيده من خلال كل ما خلق الله، وإن كان هبَّة ريح، فما يرسل الرياح غيره، أو صكَّة حجر، أو لمسة وتر أو تناوح شجر!!

هذا أينشتاين يقول من خلال تطلعه فى الكون والحياة «إن أروع شعور يملأ نفس الإنسان وهو يتطلع إلى السماء، أن هناك سرًا هائلاً وراء كل شىء، إن هذا السر هو المصدر الحقيقى لكل عالم، وكل إنسان لم يستشعر جلال هذا السر، هو إنسان أعمى»، والعمى الذى عناه الرجل -فيما أرى- أبعد مدى من فقد البصر على جلالته، والله تعالى يقول ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وأينشتاين على يهوديته هو أكبر علماء العصر الحديث ومفجِّر الذرة، وقد سأله أحد الأمريكان (هل تؤمن بوجود الله كما جاء فى الكتب المقدسة؟ فقال: أنا أؤمن كل الإيمان بوجود خالق لهذا الكون، وكلما تعمقت فى دراساتى وأبحاثى، ازداد إيمانى بعمقها ورسوخها).

وأينشتاين مثل جميع العلماء والخبراء الذين اشتركوا فى التغييرات الذرية والهيدروجينية التى أجرتها أمريكا فى جزر «بكين» فى المحيط الهادى، والذين اشتركوا من قبل فى صنعها، ولقد سئلوا جميعًا، فلم يوجد بينهم ملحد واحد، جميعهم يؤمنون بوجود إله واحد، فأين العلمانيون والماركسيون وأدعياء التنوير فى العصر الأخير من رؤية هؤلاء الذين أنصفوا الحقيقة وأعطوا العلم خالص الإذعان والاعتبار.

والشوط الذى جريته بسرد أقوال الرجال فى هذا المجال لا ضرورة إليه لمسلم يجد القرآن والسنة وهداياتهما غذاءً وريا يغنيانه عما وراءهما من دلائل وجود الله

وبراهين شـهوده، وإن كـانا أبين شيء وأظهـره، أظهر من الشـمس في رائعة الـنهار، إلا بقـدر ما يقول الله تـعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محـمد:١٧] ويـقول: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى...﴾ [مريم: ٧٦] ويـقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

ورضى الله عن أبى الحسنين فهـو يقول (سـبحانـك متى غِبْتَ حتى يحـتاج وجودك إلى دليل).

إن أقوال هؤلاء الغـربيين وإن كان أثارة من النور فـإنه لا يرتفع إلى مستـوى ما يفيـده النظر والتفكير فى مـخلوقات الله تبارك وتعـالى فليس فيه مـا فى كلام الله ورسوله وكلام أولى الألباب عـصرًا بعد عصر. من اليسـر والبيان وظهور التى هى ثمرة القلب السليم والعقل المستقيم والنظر العميق المستبصر المبصر على أن كل شىء خلقه الله عز وجل يقوم شهادة للحق وغفر الله للحسن بن هانى «أبى نواس». فقد عبر النهر إلى بغداد فمال إلى وراق وتناول ورقة فيها شىء من الشعر وهو:

فـواعـجـبًـا كـيف يعـصى الإله ... أم كـيـف يجـحـده الجـاحـد
ولله فـى كـل تحـريـكـة ... وتـسكـينـة أبدًا شـاهـد
فـى كـل شـىء لـه آيـة ... تـدل عـلى أنـه الـواحـد

فسأل أبو نواس الوراق:

لمن هذه الأبيات؟ فقال إنها لأبى العتاهية.

وددت أنها لى بنصف شعرى.

وهذا الشعر يجرى فى سياق من قال:

تأمـل فى نبـات الأرض وانـظر ... إلـى آثار مـا صـنع المـليـكُ
عـيـون من لجين شـاخـصـات ... بأبصـار من الذهب الـسـبـيك
على قـصب الـزبجـرد شـاهدات ... بـأن الله لـيـس له شـريـك

اعرف نفسك أيها الإنسان

إن أوجب الواجبات علينا وعلى ذوى العقول والقلوب على سواء أن نعرف الله تعالى بقدر ما وهبنا من وسائل الإدراك، ومنافذ العلم، التى تُحسن بها تأمل آيات الله المتلوة فى كتابه، وتُحسن بها استكناه أسراره وشواهد وجوده ووحدانيته وعلمه المحيط وقيوميته على كل شىء، فى آياته المجلوة فى الآفاق والأنفس.

والله تعالى يلفتنا إلى ذواتنا ممَّ خُلقت؟ وإلى أغذيتنا كيف وُجدت؟ وإلى الآفاق علوًا وسفلا، لنرى بديع صنع الله وباهر قدرته، وظاهر إحكامه وحكمته وسابغ إحسانه، وبالغ جوده وإنعامه فى كل ما تراه عين، وتسمعه أذن، ويبلغه فكر، وتناله يد، ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقوله ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] والله تعالى يردد هذه الحقائق ويؤكدها فى مجال الإخبار والحديث عن خلق الإنسان فيقول ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] ويجعل سبحانه تأمل هذه الحقيقة دليلاً على المعاد وبعث الأرواح والأجساد ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فيبدد الله ذلك اللبس فيقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

فالحياة الأولى منقضية، والساعة آتية لا ريب فيها، والحى بينهما مستخلف مكلَّف مسئول «**عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به**» [رواه الترمذى والدارمى من حديث أبى برزة الأسلمى] فهو يُسْلف من دنيا العمل، ومن مزرعة الآخرة، ما يجده هناك خيرًا بخير وشرًا بشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

إن الإيمان بالله هو المعتصم من أن تزل بنا فى الإثم قدم، ومعرفة حق الله فى أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر هى موجبة عدَة الله تعالى فى قوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٢، ١٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] والصراط المستقيم فى الآية، وهدى القلب موعود الله لمن آمنوا به يستجليهما المؤمن فى الحياة ثم يجدهما فى المصير إلى الله وعدًا عليه حقًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩] وإنما يذكر الله بحق، من رضى بقضائه، وعلم أن الخير كله فيما قدره سبحانه ورضيه لعباده، فهو أرحم بهم من الوالدة بولدها ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فاعرف نفسك أيها الإنسان على حقيقتها حتى تكون ممن قيل فيهم (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وحتى تكون أحرص شىء على الاستجابة لأمر ربك واجتناب ما نهى سبحانه عنه وأنت منطلقٌ بين مبتدئك ومنتهاك خليفة بحق مع أمثالك عن الله عز وجل فى إصلاح كونه وناس زمانه ومن يليهم ممن نوَّه الله عز وجل بهم

في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، ولتكون بذلك أهلاً لأن تناجي ربك بما ناجاه به الإمام الشافعي رضي الله عنه وهو يقول:

أذقنا رحيق الحب يا من إذا سقى ... محبًّا شرابا لا يجوع ولا يظمى

وجل الله الذي يعصمنا بفضله وحوله وطوله من أولئك الذين توعدهم بقوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

وأنت أيها الإنسان قد خلفك الله عز وجل من مادة وروح وبطاقات وقوى متعددة تعين على المعرفة الحقة بخالق الخلق ومالك الملك، واحدًا أحدًا فردًا صمدًا لا شريك له في دبير أمور من خلق بعد أن خلقهم وحده بغير مساعد ولا معين.

وكم مر بك قوله تعالى ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ الانفطار: ٦، ٧].

وأراني أمام كلمات للدكتور روبرت هورتون كاميرون في مقاله الإنسان ذاته هو الدليل في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ص١٢٩ يقول: (إنني أعتقد بوجود الله لأنه وهبني التميز الأخلاقي، فالجنس البشري لديه إحساس فطري بما هو خطأ وما هو صواب، وكما يقول لويس في كتابه «قضية المسيحية» «قد تختلف أفكارنا ومع ذلك فإننا جميعًا ندافع عن حقوقنا وننشد العدل».

إن اعتـقادى فى الله يقوم أيضًـا على حرية الإرادة وذكـائها -الإرادة الإنسانية التى وصفت بأنها العمليـة الشعورية الكاملة التى تقود الإنسان إلى اتخاذ قـرار معين، الإرادة التى هى إحـدى الأقســام الكبرى التى يقســم علماء النفس قوى العـقل إليها (الـقوتان الأخريان همـا الإدراك والشعور)، فـأنا عندما أرغب أو أريد شيئًا معينًا يتخذ عقلى قرارًا به، وإرادتى هى التى تنفذه.

ثم أردف يقول: إن الإنسان خليفة الله فى الأرض واستأنس لذلك بما عرفه عن الكتب السمـاوية وبما قرره يكاد يقنعنا بأنه انتفع بالقـرآن الكريم وهو يذكر الكتب السماوية من أن الإنسان يحصل على العلم بطريقتين: البصر والبصيرة.

أما البصـر فهو ما نتـعلم فى حياتنا وما نكتـسبه عن طريق حواسنـا من الخبرة بأمور الحياة.

وأما البـصيرة فهى ذلك النـور الذى يفرغه الله فى قلوبنا فـيكشف لنا به ما لا نعلم) واستأنس لذلك الدكتور الفندى مترجم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿**يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا..**﴾ [البقرة: ٦٩].

ومن المفيد أن أذكر هنا قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

وتابع الكاتب كلامـه النافع فقـال: (وكذلك الحال فـيما يتـعلق بالإيمان بوجود الله، إذ لابد أن يقـوم أولاً على البصر ومـلاحظة ظواهر كتـلك التى أشرنا إليـها سابقًا، ثم نلتجئ بعد ذلك إلى الله لكى يكمل إيماننا ويدعمه.

إن رجال العلوم يعتمدون على التجربة، وأنا مقتنع بوجود الله اعتقادًا يستند إلى أدلة تجريبية، ولـكنها تجارب شخصية صـرف، ومع ذلك فهى أقوى لدى من كل دليل، وأشد إقناعًا لى من أى برهان رياضى، لقد لمست هذا الدليل فى نفسى منذ اثنتين وثلاثين سنة عندمـا كنت بحجرتى فى القـسم الداخلى بجامعـة كورنل يوم جاءنى البرهان وأغدق الله على قلبى نور الإيمان، لقد أصبح الله لدى أكبر من كل

ما سـواه حتى أننى أرضى أن أفقـد كل شىء فى هذا الوجود، ولا أرتد إلى حالتى السابقة. لقد كان هو سبـحانه صاحب الفضل فى هذا البرهان فهو الذى أنزل على قلبى وجعلنى أعتقد فى وجوده».

هذا كلام أقوام بصّرهم الله عـز وجل بحقيقة وجوده تعـالى على نحو يجعلنى أوقن أنهم لو حدوا أبصـارهم قليلاً لاهتدوا إلى مـزيد بصيرة نيـرة تتأدى بهم إلى الاعتقاد للدين الخاتم. ومن خلال هذا النذر اليسير مما حواه كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» تبرز حقيقـة وحدة الدين التى يقول الله عز وجل فيها ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ..﴾ [آل عمـران: ١٩] ويقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وجزى الله الدكتور الفندى خيرًا فهو يقول فى آخر ذلك الكتاب: كان لزامًا أن يضم إلى ذلك الكتاب فصل أغفل عن آخر كتاب مقدس نزل حين اكتملت الإنسانية ونضجت عـقول البشر واستعدت للبحث والتـفكير والتدبر والتأمل، وذلك بطبيـعة الحال بالإضـافة إلى ما أوردنا -تحـت الهوامش- من آيات ذلك الكتـاب البـينات فى بعض المنـاسبـات كـتـعـقـيب على مـا جـاء فى بعض الصفحات).

وتلك أمنيـة لا ريب نودّها مع الدكـتور الفـاضل والكمال لله وحـده، والحق دائمًا تؤازره وتظاهره مشيئة الله الذى يقول ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ومن أصدق من الله قيلا ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلـت: ٥٣]. ويقول ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

ولا بأس على الحق -والله عـز وجل هو الحـق المبين وكلمـاته الحـسنى هى الحق الذى لا يأتيـــه البـاطل من بين يـديه ولا من خلفـه -من أولـئك الذين

يجادلونك فى الحق بعدما تبين فكلما تتابع خطو الزمان كان الإسلام أسرع من رجع الصدى فى إحباط شـغب المشاغبين على الحق وشواهده ومشاهده.

وهذا الذى اخترته بنظرة طائر فى كتاب الله يـتجلى فى عصر العلم -غيض من فيض وقليل من كـثير تأتى به الأيام والليالى ويزيد الله عـز وجل به الذين اهتدوا هدى والذين يزدادون نورًا على نور من آيات الله تعالى.

❁❁❁

وأنت أيها الإنسان

الإنسان الذى تابع الله فيه وفى ذريته الخلافة فى هذه الدنيا خليق به أن يعرف نفسه ليعرف ربه، وليؤدى واجبه، وليمضى فى الحياة على صراط مستقيم، بعد أن أدرك أنه مناط إعزاز الله تعالى، فهل عرف الإنسان ما هو؟ ومن هو؟.

أنت أيها الإنسان خليفة الله فى أرضه، خلق أباك آدم بيده الإلهية القادرة فى أحسن تقويم، وعلَّمه الأسماء كلها وأسجد له بذلك ملائكته، وأسكنه جنته، وتابع فيه وفى ذريته ميراث هذه الأرض، بعد أن نفخ فيه من روحه حتى لا تشده مغريات الحياة بكل إحساسه، ومداركه وقواه إليها، فى غفلة عن موجبات الاصطفاء، ومقتضيات الترفع عن عبادة الذات، وأسْر الشهوات، وتأله المادة التى خلقها الله وامتن بها وبأنعمه التى لا تُعد فقال ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وأعظم الله -أيها الإنسان- المنة علينا بما زودنا به من قوى ومدارك تستوجب عرفان فضله ومزيد إكرامه، وهى ترينا الخير خيرًا، والمنكر منكرًا فيقول ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وتجلى المنة وتعظم النعمة حين يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفى كل جارحة فيك -أيها الإنسان- لسان مُسمع، وبرهان مُقنع، وقصة عجب ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، ولقد أبصر من رآك على حقيقتك

فقال:

وتزعم أنك جُرمٌ صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

وليس أعجب من عالم الروح فيك، إلا أن يخلق الله من قبضة من تراب هذه الأرض بشرًا سويًا يسمع ويرى ويعمل ويتكلم وهو يعقل عن الله مراده بكلماته، وبما علمه دون ما وراءه من كائنات ومخلوقات؟! وجل الله وعظمت أنعمه.

﴿ **أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [السجدة: ٧-٩].

فهلا أحكمت -أيها الإنسان- بالله وثاقك، فأخذت جوارحك ما أحل وشرع، وتركت ما نهى عنه وحذّر منه؟! منصفًا من نفسك التي لم تكن مادة ترسب وتنحط، ولا روحًا صرفًا لا تستقل بحاجات الأرض، فهو مادة وروح معًا قال الله تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

إن امتزاج المادة والروح فيك -أيها الإنسان- يضاف إليه عنصر مميز للإنسان المكلَّف المستخلف، إنه عنصر العقل الذى يصح فى الإنسان فيعقل به عن الله مراده، ويعقله ويمنعه من أن يخالف عن أمر ربه قيد شعرة، كما يفعل العقال بالبعير وهو يحدد حركته ومساره، وكما يصنع دولاب السيارة بين يدى السائق الحذر البصير الذى يُقدِّر العواقب، ويعرف الواجب، ويأخذ بأسباب السلامة جهده، ذاكرًا أن الله خير حافظ وهو أرحم الراحمين. إن هذا العقل هو مناط التكليف فيك -أيها الإنسان- وهو المرآة المجلوة التى يراك فيها من يرصدون عملك، ويسمعون قولك، ويتابعونك بكل حال فى غدو ورواح، فهو بذلك منطلق تشريف أو انحدار وسقوط، ورحم الله أبا الحسنين على بن أبى طالب فهو يقول (ربٍّ من أعطيته العقل فماذا حرمته، ومن حرمته العقل فماذا أعطيته؟!)، وقد قالوا وهم يعنون العقل (إذا أخذ ما وهب، أسقط ما وجب)، وقد قال على رضى الله عنه **(العقل فى القلب)** والمرء ينظر قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٧].

وانظر كلمة عليٍّ آنفًا وقول ابن عباس (لَمن كان لهُ قلبٌ) أى عقل، فـأفهم أن القلب لا يكون أمير البـدن كـما روت السنة المطهـرة حتى ترشـد جوارح الإنسان فلا تخالف طرفة عين عن سنن الله لها.

والناس يتفـاضلون بعقـولهم، فأعـمالهم لا وزن لها ولا اعـتبار حـتى تنهض بعقل، وتقوم على بصر من هدى ورشاد، والمؤمن يقدم لعقله غذاءه من النظر من القرآن والسنة أولاً ومن فطرة الله فيه ثم فى الأنفس والآفاق، ففيها رياضته وقوته، وبها تقـوى العقـيدة، وتصح العبـادة، ويعتـدل ميزان السلـوك، ويحرز المرء من مصانعة النفس ما يجعله أهلاً للترقى فى مدراج الإيمان صُعُدًا إلى التقوى التى هى ثمرة التكاليف جميعًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقـرة: ١٨٣]، والله تعالى يردف آية البقرة بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وتلك بعض ميادين العقل ومجالاته التى يقـوى فيها ويبقى ويبلغ بالمؤمن كمال العـقيـدة وما خلـق الله الإنسان لأجله وهو يقـول ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] إن فى الحـيوان مـا فى الإنسان من مـادة وروح لكن الإنسان بتقـدير الله، لا بالأنبوب، ولا بالمصادفة ولا بسلطان الـعلم وترف أدعياء الوسائل الحـديثة، ذهب بهذه اللطيفـة الربانية إلى شرف التكليف والاسـتخلاف، وتطويع ما سواه له ولله الفضل والمنة وهو يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وما أكـثر ما أحـالك الله -أيها الإنسان- إلى عـقلك، ليضاعف من شـعورك بذاتك وتقديرك لُمشخصاتك، ولكى تكون مصدر خير وبر وإحسان وذكر، وتكون واحدًا من أولى الألبـاب، وأولى النُهى، وذوى الأفئدة، ومـا زلنا مع الإنسان فى رحلة تعريف به والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

سبحانه كلفنا بما يشرفنا

إن الله تعالى وهو يكلف عباده بما يحييهم، يشرفهم بخطابه ويدنيهم من رحابه ويصلهم بجنابه، عن طريق الإيمان بوجوده، والصدق في توحيده، والسبق في مضامير الاستجابة لأمره والبعد عما نهى عنه، وأى تشريف للإنسان وراء أن يؤثره الله دون مخلوقاته باستجلاء ملكوته الأعلى وأمه الأرض التى يغدو عليها ويروح ويمسى ويصبح حتى يعود إليها مرة أخرى ويشحذ لذلك قواه ومداركه كى يستطلع آيات الله فى السماوات والأرض؟ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]..

أجل، إن تكليف الله عباده شهادة منه تعالى بأنهم بلغوا الرشد العقلى والنفسى، وحين تكون الفطرة الإنسانية نقية، وتكون مشارع الإنسان وأحاسيسه سليمة سوية، فإنه لا يحتاج وراء النظرة والتفكر الممكن الذى أمر الذى أمر الله به وندب إليه عباده، إلى دليل فلسفى يدله على الله، وجل الله الذى لم يتعبدنا بما هو فوق وسعنا وندبنا إلى أن نقول ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]..

لقد أحالنا الله إلى مخلوقات مجلوة لا تخفى، وإذا أثار امتنان الله بقوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩] وقال الإنسان بجهله: ماذا تكون الشعرى هذه بالنسبة إلى ملكوت السماوات والأرض حتى يذكر الله هذا الكوكب بهذا الأسلوب الدال ضمنيًا على عظمته، وعلى أسرار فيه لا تبلغها حواسنا.. فإن علماء الفلك يقررون أن «الشعرى» هى من أشد الكواكب نورًا، وهى مع ذلك النور اللامع تبعد عنا بنحو ٣٩ تريليون ميل، وتوجد شموس كثيرة هى أكبر من شمسنا ولكن لبعدها عنا نراها صغيرة جدًا..

وتقول كتب التفسير إن الله ذكر كوكب الشعرى بذاتها لأن بعض قبائل العرب كانت تعبدها، فجاء قول الله للرد على عابديها وإلا فلله ملك كل شيء ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]. .

إن الله الذى فاوت بين عباده فى قوى التأمل والنظر والاستبصار والتفكر، وجعل مسارح ذلك ومجاليه تتعدد وتختلف ظهورًا وخفاءً، وكثرة وقلة، وقربًا وبُعدًا كيلا ينهض لجاحد عذر أو تقوم لمنكر حجة:

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة   أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

فمن لم يستبصر بهذا الدليل الباهر فى نفسه، استبصر بالسماوات وخلقهن، والأرض وما فيهن، أو نفعه التفكر فى الرياح والأعاصير، وفى المطر كيف ينهلُّ غزيرًا مدرارًا كأفواه القرَب فى أمكنة دون أمكنة، وأزمنة دون أزمنة، وفى الحرارة كيف تقسو هنالك، وكيف تلين ههنا، وفى النبات والأشجار تزكو فى هذه البقعة من الأرض دون أخواتها التى تختلف كذلك فتكون حية صالحة للإنبات أو تكون من الأرض الموات، وفيما وراء ذلك من جبال ونجاد ووهاد فيها لله آيات، ومن حيوان يمتن به الله فى قوله: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨]. ويرحم الله أبا العتاهية فلقد أبصر فقال:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله فى كل تحريكة   وتسكينة أبدًا شاهدُ
وفى كل شىء له آية   تدل على أنه الواحدُ

يقول الإمام ابن القيم «وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه فى كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقفك على العلم به سبحانه ووحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، من

عموم قدرته وعلمه وكمال حكمه وحسه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه. ولهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلىٰ التفكر فى آياته».

وذكر -رحمه الله- من نظره فى الإنسان والنبات والحيوان والسماوات والأرض ما يعتبر آية كذلك دالة على أن وراءها قوة الله وفضله.

ورحم الله العالم الذى قال «إن الشمس والسيارات التى تدور حولها إنما هى جزء صغير جدًا من ملكوت السماوات والأرض، إذ كل نجم من النجوم الثوابت التى نراها هى شمس كشمسنا تدور حولها سيارات كما تدور السيارات حول شمسنا» ويقول «إن ما نشاهده من العوالم إن هو إلا قطرة من بحر تاهت عنه مداركنا إلى الآن ولا يزال لغزًا من الألغاز التى يبعد عن عقولنا حلُّها، أى حال من الأحوال يفقدان الوسائط الموصلة لذلك، ولا يعلم عدد ما احتوته من الأجرام والكواكب على الحقيقة إلا خالقها».

ومرة أخرى فبعض ما نراه وندركه مغنٍ فى النظر، وكاف فى الدلالة على قيوم السماوات والأرض بقليل من الإنصاف والتهيؤ للإقرار والاعتراف بما هو بيِّن بالفطرة بلا عسر أو اعتساف..

ولقد مارى الناس وأشركوا بالله وقال لهم المرسلون ما حكى الله ﴿ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⑨ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [إبراهيم: ٩، ١٠]، فدعوهم إلى عبادته تعالى لا إلى الإقرار بوجوده والإيمان بوحدانيته، فإنهما أظهر شىء، وأبين للعقول من كل ما نعقله ونقر بوجوده..

ونظام السماوات وحركات الأجرام السماوية المنتظمة تدل دلالة واضحة على وجود الخالق سبحانه وتعالى، فذلك لا يتأتى وحده، ولا تصنعه الطبيعة التى يرد إليها عمى البصائر قيام هذه الروائع الكونية، وما الطبيعة تلك الخالقة بزعمهم؟ أليست هى آثار هذه المكونات من الأفلاك والرياح والأمطار وما وراءها؟ أتكون هذه الطبيعة البلهاء الصماء العمياء واهبة ما لا تملك؟. وفاقد الشىء لا يعطيه -كما قالوا..

ويوم قال الجاهلون ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فزعموا لله شريكًا يهلك ويتصرف، جاء قول الله ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] اكتفاءً منه تعالى بآياته الكثيرة التى تشهد بوجوده وقيوميته ووحدانيته وقدرته جل وعلا على إحياء الناس وبعثهم كما خلقهم أول مرة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]..

أجل، لا يقوم الكون على صفته التى ليست سرًا محجوبًا إلا بإيجاد مدبر حكيم، يوجد الأشياء بقدرته ويتقنها بحكمته فلا ينفذ فيها غير أمره، ولا تمضى بغير مشيئته ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٥]..

وهل أمليت لعقلك وقلبك معًا فى تتابع الليل والنهار، إنك ستراهما لا ريب وكأن أحدهما يسوق الآخر، فلا تكون الفرصة للنهار فى موقع من مواقع كوكبنا الذى نعيش فيه، ويضطرب الأحياء بين نواحيه، إلا والليل يتربص بمقابله، ويقوم مقامه ويغشاه ويتوارى النهار فى رداء الأصيل، وتلفُّهُ بردة الغروب، وتكون الجولة لليل يرسل سدوله، وتغمر السكينة الوجود بأسره، ويكون الليل لباسًا للحياة كلها بعد أن كان النهار معاشًا للأحياء، وتتم نعمة الله ومنته بهذا وذاك فيقول ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣]..

فكن ممن يسمعون ويبصرون سماع اعتبار وبصر ادّكار، ولا تكن ممن يمرون بآيات الله ذاهلين ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وستبقى أيها الإنسان فى كوكبك الذى خُلقت من ترابه، منذ خلق الله أباك آدم من تراب واستخلفت فى عمارته وأمكنك الله عز وجل من أن ترتاد عوالمه العليا

ارتباط هو أشبه ما يكون بزيارة الزائر ثم تعود إلى كوكبك دون أن تنزل الأفلاك العليا إليه أو تعيش أنت فى غير موطنك الأول. والشاعر يقول:

أرى الشمس مطلعها فى السماء فعزّ الفؤاد عزاءً جميلاً
فلن تستطيع إليه الصعود ولن تستطيع إليه النزولا

والأمر لله عز وجل الذى قال: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

❁❁❁

نحن أبناء الأرض

أجل: الناس أبناء الأرض، فأبوهم آدم قبضة من ترابها، واسمه آدم ملحوظ فيه أديم الأرض التى هى أمه وأم كل إنسان من أبنائه وحفدته، لا يُنْهنهُ من هذه الحقيقة أن الله خلقنا من النطفة، أوليست النطفة فى حقيقتها نهاية مطاف الأغذية التى يتناولها الآباء والأمهات من نبات هذه الأرض؟ يقول إسماعيل صبرى:

هى أم أحنى عليك من الأم   التى خلَّفتك للآلام!!

وكان مقتضى أن الولد سر أبيه كما يقول المعصوم صلوات الله عليه، وأن الولد يرتضع من ثدى أمه مع درها بعض أخلاقها، ويشب معه فى مدارج نموه بعض عاداتها وسماتها..

كان مقتضى ذلك أن تنفع الإنسان آيات الأرض الدالة على وجود الله وباهر قدرته..

وإذا كان فى الناس من منحوا هذه الآيات كل ما يملكون من وعى فهدتهم إلى الله، فإن كثرة كاثرة فيهم يمثلون الأرض السبخة التى لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ كما قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلَّم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به**»[1]..

إن الفريق الأول فى الحديث النبوى، صادق الحس، نقى الفطرة، مؤهل لإدراك الصواب والانتفاع به فى كل ما يقول ويعمل، وإذا بلغه أمر الدين من توجيهات

---

(١) رواه البخارى من حديث أبى موسى الأشعرى.

القرآن وهدايات النبى ﷺ فى قوله وعمله وتقريراته، أرهف إليه السمع وجرَّد له العقل، وفتح لمعانيه ومغازيه القلب، وبادر مطمئن الفؤاد أسرع من رجع الصدى، إلى العمل بما علَّمه الله من ذلك الخير ثم مضى بعد أن علم وعلَّم، ينفع غيره، ويهدى إلى الرشد سواه.. وأى نعمة أتم من أن يبصرك الله بالحق، ويعينك على العمل به والانطلاق إلى أداء ما نيط بك بين قافلة الذين استخلفهم الله فى ملكه، وعلى تصريف شئون خلقه، بما ينفعهم ويرفعهم إلى قمة الكمال البشرى، وأنت تضىء شموع الهدى، وتمزق أغشية الجهالة وترفع ألوية الرشاد فى كل مجتمع تغشاه، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، مفقهًا فى دين الله، مقدمًا صور الاقتداء للأمناء من أعمال الآباء.. ويا له من عمل جليل..

ولهذا الفريق ضرب الرسول ﷺ مثل الأرض الطيبة التُّرْبة النقية الخصبة، التى إليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣- ٣٥]..

والفريق الثانى فى الحديث النبوى: سقيم الوجدان، عليل القلب، غير سوى الحواس، له سمعه الذى لا يسمع به سماع تقبل، وبصره الذى لا يبصر به بصر اعتبار وتمثل، حتى لتراه وكأنما إيفت مشارعه(*) كأولئك الذين عناهم الله بقوله ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].. فهذا إذا جاءته آيات القرآن ولَّى مدبرًا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرًا، ألا تراه لم يرفع لها رأسًا، ولم يؤنس بها نفسًا؟! وما أكثر حفاوته وأشد اهتمامه بكل كلام سواه مما يوائم هواه، ولا يتفق وهدى الله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا..﴾ [الجاثية: ٨، ٩]..

(*) إيفت مشارعه: اعتلَّت وسائل إدراكه.

ألا ترى المضروبة مثلاً لهذا الفريق كيف أضلت الماء فى جوفها، (وطوته) بين طواياها وأكنافها، ولم تنتفع به فى إخراج الزرع والثمار، ولم تنفع به فى الرى الظاعن ولا المقيم فى ليل أو نهار، وقد فاتها حين لم تنتفع به على هذه الوجوه أن تحتفظ به فوق ظهرها لترتوى منه الطيور والحيوان وينتفع به فى شئونه الكثيرة الإنسان، ويجرى بعضه إلى أرض أخرى يمكن أن تعشب وتنبت حب الحصيد وتخرج به من كل الثمرات، حتى تتم منة الله على عباده بقوله ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠] وكم فى دنيا الناس من رجال ونساء، أفسد فطرة الله فيهم ولاؤهم الفكرى -ولا أقول أكثر- لعدوِّهم تعاليا عن هدى الله وهم يعرفون من حقائقه وأسراره جوانب، ولكنهم يطوون عليها جوانحهم، وكأنها معايب -عفوك اللهم- تخفيها الستور الصفاق، كراهة أن تُعلم عنهم أو تنطلق من ألسنتهم كلمة تنم عنها أو تدل عليها، حتى لا يُؤنبوا -هداهم الله- بالتخلف الفكرى، ولا يُنبزوا بالرجعية، ولا يُتهموا بالحياة فى عهود الشيخ والقيصوم والتمر ولبن النوق، كما قالت ذلك دكتورة لبعض الطالبات، وكما يردده فى أقطار وأمصار صغار الحلوم وإن كانوا من حملة الدرجات العلمية الكبرى التى تمثل ثوب الزور، وكساء الرياء وهو يشف عما تحته ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، و «تعس من ليس له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر» كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه.. ورحم الله القائل(*):

يقضى على المرء فى أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

والفريق الثالث وإن لم يذكره النبى فى حديثه الشريف صلوات الله عليه، فإنه أبرز لنا المثل الدال عليه والمرشد إليه، فهو قد سمع ما أرسل الله به مصطفاه، تفهَّم معناه، وأدرك فحواه وعرف من مراميه، ومراد الله فيه، ما ينفع ويعين على الاستجابة لأمر الله، ولكنه لم ينتفع فى ذات نفسه بشىء من ذلك، وجرت أعماله

(١) وصدر البيت: يُقضَى على المرء فى أيام محنته.

وأحواله فى غـير تلك المسـالك، وراح يؤدى عمل زُبالة المصـباح التى تضىء على غيرها وهى تحترق، وتقوم بمهمة حجر السِّنِّ الذى يسنُّ الحديد ولا يقطع، وذهب فى الناس مع من ذهبوا بملام الله فى قوله ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقـرة: ٤٤].. وكيف يستقـيم فى منطق العقلاء أن يأمر بالمعـروف من لا يأتيه، وأن ينهى عن المنكر من يقع فيه، وهل يفى للناس من لم يف لنفسه؟! ومثل هذا كمثل الأرض التى تمسك الماء على ظهرها ليشـرب منها الأحياء، ويتيح فرصة نقلـه إلى الأرض الطيبة حتى يزرع الناس ويرعوا دوابهم..

ويا ويل من لا ينفع ولا ينتفع من ذوى القلوب التى لا تحفظ، والعقول التى لا تعى؟! إنه ذلـك الذى لم يرفع بذلك رأسًـا ولم يقـبل هـدى الله الذى أرسل به مصطفاه صلوات الله عليه..

لقـد أسـمعَـتْ مشـاهد وجـود الله كل ذى سـمع، وتراءت لكل ذى بصـر، واستعلنت لمن كـان له قلب، وحرص هؤلاء على ما هُدُوا إليه من نعمة مـعرفته، وأُنس الهـداية إليه، فـلا تخرج من واحة الإيمـان إلى صحراء الغـفلة والنسـيان، والجرى مع الهـوى بكل سبيل، ومن نبض قلب أبى حـيان التوحـيدى نطالع هذه الكلمات..

«حرامٌ على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غيـر عظمة الله، حرامٌ على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غيـر الله، حرامٌ على نفس طهرت من أدناس الدنيا لله، أن تُدنَّس بشىء من مخالفة الله، حرامٌ على عين نظرت إلى مملكة الله، أن تتطرق إلى غير الله، حرامٌ علـى كبد ابتلَّت بالثقة بالله، أن تطمئن إلى غـير الله، حرامٌ على من لم ير الخيـر إلا من الله، أن يجرِّد طمعًـا فى غير الله، حـرامٌ على من شرف بخدمة الله، أن يتضع بخدمة غـير الله، حرامٌ على من ألف فناء الله أن يعرج لغير الله، حرامٌ على من تلذذ بمنـاجاة الله أن يناجى غيـر الله، حرامٌ على من رتع فى فقه الله، أن يعرف غير الله».. فاللهم مزيدًا من معرفتك.. يارب.

أذقنا شراب الأُنسِ يا من إذا سقى ... محبًا شرابًا لا يُضام ولا يظمأ!!

ورحم الله الذي قال:

حـــرامٌ على مـن وحَّــد الله ربه ... وأفـرده أن يجـتـدي أحـدًا رِفـدا

ويا صاحبي قف بي مع الحق وقفة ... أموت بهـا وجدا وأحيا بهـا وجدا

وقل لملوك الأرض تجـهد جهـدها ... فذا الملك ملك لا يبـاع ولا يهدى

❁❁❁

وفي كل شيء له آية

لقد كنا مع الإنسان موضوعًا للدلالة على ربه ورب كل شيء، بما ركب فيه مولاه من أسرار باهرة، عرفنا أنه حين تصح فطرة الله فيه قادر على أن يبرزها بحاله، فإذا اتبع هواه، وآثر الضلال على هدى الله، كان كل شيء خيرًا منه، وأقوم قيلا وأهدى سبيلا، وهو يؤدى مراد الله منه، ويستجيب لما أمره به مولاه، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، وقال: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]..

وقال فى آيات خلق السماوات والأرض فى صدر سورة فصلت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]..

وقال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩]..

وقال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]..

ومن الناس من لم تفدهم النظرة فى أنفسهم، ولا فيما حولهم شيئًا فصدوا عن سبيل الله، وكفروا به سبحانه وسخروا من كل ما هو حجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]

وقال ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر: ٢، ٣]، وقال ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]..

إن من هؤلاء من قالوا لرسول الله صلوات الله عليه سيِّر لنا جبال مكة واجعلها لنا ذهبا، ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]..

سيبقى الإنسان فيما علَّمنا الله من أسراره فيه، وفيما لم نعلم من ذلك مصدر إشعاع ومبعث هدىً واتباع لمن يبتغون السبيل إلى الله، فطعامه وشرابه، ويقظته ومنامه، وارتياحه واكتئابه وشبابه وهرمه وشيخوخته، وسائر ما يعرض له من صحة وسقم، ورضىً وغضب، وحب وبغض، وارتفاع واتضاع، كل هذه ظواهر وآيات شاهدة لله بوجوده وقدرته وحكمته ورحمته.. ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٦، ٦٧]، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥]..

فـالله الذى خلقنا ذكـورًا وإناثًا، وجـعل بين هـؤلاء وهؤلاء من التجاوب والتجاذب ما لابد منه لتتم على الجنس البشرى نعـمته ومنته بمثل قوله سبحانه ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩]..

وليبقى النوع الإنسانى، وتتصل حبال البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]..

يقول بعض المفسرين: «إنه تعالى خلق النساء ليتزوج بهن الذكور، وقد خلق الله بجانب الذكر الأنثى لاستدامة نوعه، وجعل فى قلب الذكر الميل إلى الأنثى، وفى قلب الأنثى الميل إلى الذكر، ليحصل بذلك التـجاذب بينهما، وجعل منهم الأولاد والأحفاد، بمقاربتهم وميل كل منهـم إلى ضده، فهذا يدل دلالة كاملة على وجود قوة مـدبرة، تدبر كل شىء، ولولا هذه القـوة المدبرة لم يحصل شىء من الـتوالد والتناسل»..

والله تعالـى يمن علينا فى سورة النحل بالزواج، وامـتن به مرة أخرى فـى سورة الروم وجعله آية من آياتـه، كرامة للنوع الإنسـانى الذى ينبغى أن يرتفع بخصـائصه ويعلو بغرائزه وأشواقه إلى حيث رفعـه الله، فلا يجرى بنزواته كالسوائم، ولا يمضى لإشباعها فى الدروب والمسارب بعيـدًا عن الزواج المشروع، وعروته الوثقى، وسياجه المنيع.. فما تترعرع فى غير رحابه زهرات الحياة، وثمرات الأفئدة وأشطار النفوس، أولئك الذين سماهم رب العالمين ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ واعتبرهم عباد الرحمن وهم يدعون ربهم قائلين ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، كما قدرهم

ملائكة الله وهم يقولون ما حكى الله عنهم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر: ٨]. .

وصدق الله العظيم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ألتناهم: أى أنقصناهم. .

ولقد قلت يومًا:

فـأولادنا سلوى الحـيـاة وإنهم	لفى غدنا الموعود من أنفع الذكرى
نورِّثهـم أمـجـادنـا، ونُعـدُّهم	لنحيـا بهم فى عمرهم مـرة أخرى

وكنت قد قرأت ليلة فى مدينة صنعاء «اليمن» قول الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] فعملت الآية عملها فى قلبى وعقلى ثم لم ألبث غير قليل حتى جرى القلم بهذه الأبيات:

لا تذرنـى يارب فـردًا وهـب لى	فى بنىَّ الهـدى وغـالى النجـابة
إنهـم ثروتى وأزرى فـدعمـهم	من شـبـاب الإسـلام بين الذؤابة
يحفظون العرين والدين مـا عاشوا	ويحـيـوْن فى كـمـال الصـحـابة
لـيـس يُـغـلى بـنـىَّ عـنـدى إلا	أن يكونوا فـى الحق أُسْـد الغـابة
وسـواءٌ علـىَّ بعـد أخلَّـفت	ثراءً أم رحـت دون صُـبـابة
فـغـناهم بالله يـسـعـد قـلبى	وأرى مـا سـواه عـدل ذبـابة

ويا ضلَّة الإنسان حين لا ينطلق من ذاته «فى أقل القليل» إلى خالق ذاته!!

أيظن أنه هكذا وُجد بلا موجد؟! وخُلق بلا خالق؟! إنه الحق تبارك اسمه يسكت هذا الظن القائل ويبطل ذلك الوهم الحائل فى تساؤل له معناه إذ يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. .

إن نفى الصانع، إمـا أن يكون بنفى كون العالم مخلوقـا، فلا يكون ممكنًا، وإما أن يكون ممكنًا لكنَّ المـمكن لا يكون محتاجًـا ليقع الممكن من غيـر مؤثر، وكـلا الأمرين مـحال.. وقوله تـعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟﴾ أى الخالقون لأنفسهم، وهو محال، لأن الإنسان لا يقدر على أن يخلق نفسه، بل هو محتاج إلى خالق حكيم يخلقه..

إن تأمل أيسـر الآيات الكثيـرة التى قدمناها، تؤكـد حقـيقـة خلق ابن آدم من النطفة، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]..

يقول بعض العلماء: «اعلم أن حدوث الحـيوانات قـد يكون بالتوليـد، وقد يكون بالتوالد، وعلى التقديرين فلابد فيهما من الصانع الحكيم» وقال «إن الإنسان متولد من النطفة، والمؤثر فى تصوير النطفـة وتشكيلها قوة موجودة فى النطفة، أو غـير موجودة فيها، فإن كانت القوة المصوِّرة فيـها، فتلك القوة إما أن يكون لها شعور وإدراك وعلم وحكمة حتى تمكنت من هذا التصوير العـجيب، وإما أن لا تكون تلك القوة كذلك، بل يكون تأثيرها بمجرد الطبع والغلبة والأول ظاهر الفساد، لأن الإنسان حال استكماله أكثر علمًـا وقدرة ثم إنه حال كماله لو أراد أن يغيِّـر شعرة عن كيفيتـها لا يقدر على ذلك، فحال ما كان فى نهاية الضعف كيف يقدر على ذلك؟!»..

ثم قال «لابد للنطفة فى انقلابهـا دمًا ولحمًا إنسانيًا من مدبِّر ومقـدِّر لأعضائها وقواها وتراكيبها، وما ذلك إلا الصانع سبحانه وتعالى.

والإنسان بأيسـر جهد، وبدون مشـقة يستطيع أن يرهف سمـعه لأى شىء من حوله، ومن فـوق رأسه ومن تحت رجليـه وعن أيمانه وشمائلـه، فإنه سيـجد كل شىء يحدثه بصـوت مُسمِع، وكـلام مقنع عن الله خالقًا حـكيمًا قادرًا عليـمًا لا يعزب عن علمه مـثقال ذرة، ولا يعجزه شـىء فى الأرض ولا فى السماء، وليس فى خلقه من تفاوت، بل الإبداع والكمال والإحسان والجلال مصداق قوله ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]..

وليتنا نتأمل سرًا من أسرار الإنسان التى لا يحصيها العد ولا يحيط بها البيان، ونحن نذكر ما قرره الخاصة الذين هم أهل الذكر، من أن حرارة الجسم إن زادت عن ٣٧ درجة مئوية كان ذلك إيذانًا بالخطر، وأن حرارة الكبد إن نقصت عن ٤٠ درجة مئوية أفضى ذلك النقصان بالإنسان إلى الموت، وأن حرارة العين إن زادت عن ٩ درجات مئوية كانت العين مهيأة -والعياذ بالله للانفجار..

وكم فى الإنسان من أمثال هذه الأسرار التى تشهد أن الله تعالى شاهدٌ لا يغيب وأنه أحسن كل شيء خلقه وأنه بالناس لرؤوف رحيم..

وحديث الفقهاء عن حرارة الجسم والكبد والعين وبرودتهم، نسائل معه الأطباء أين هذا الذى ذكره الفقهاء فى مقرراتهم الطبية. إنى لعلى يقين من أن العلم حين يصح فإنه سوف يسير فى ركاب الحقيقة الدينية.

وما أسعد العلم حين يمشى فى ركاب الدين. وما أشقى الحياة حين يشيع فيها ما يشيع باسم العلم وهو ليس من ذلك فى قليل ولا كثير.

وصلى الله وسلم على ملائكته الذين قالوا ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة: ٣٣]. ورضى الله عن الإمام محمد بن إسماعيل البخارى، فقد عَنْوَنَ فى كتاب العلم من صحيحه بابًا قال فيه (العلم قبل القول والعمل) واستأنس بقول الله تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ..** ﴾ [محمد: ١٩]..

❁❁❁

الزمان مرآة كبرى

إن الدهر وما يحتويه من أزمنة، طالت تلك الأزمنة أم قصرت، آية من آيات الله الباهرة، وعظمته الفائقة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقد يدرك الإنسان بعض ما فاته أو يستعيض بعض ما افتقده، ولكن الزمن الذى يمر لا يمكن أن يتعلق بعودته أمل أبدًا، ورحم الله الذى قال:

وليس براجعٍ ما فات منى بلهفَ ولا بِلَيْتَ ولا لوانِّى

وم ثم كان على العقلاء من الناس أن يستغلوا أوقاتهم وألا يضيعوا منها شيئًا قل أم كثر فى غير صالح عمل ونافع تصرف، فالعمر محسوب عليك ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة، ومن عجب أنك لو نظرت إلى عمرك منذ أوجدك الله على تلك البسيطة إلى يومك الذى تعيش فيه الآن لوجدت نفسك وكأنك ابن اليوم فقط، وما مضى من سنين طوال كأنه حلم ملىء بالأحداث قد مضى وانتهى، وهذا ما يستشعره الناس يوم القيامة فيتهامسون فيما بينهم يومئذ عن عمر الدنيا القصير، قال تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٣، ١٠٤]. ولكن الله سبحانه يقرر أن عمر الدنيا أقل بكثير مما وصلوا إليه فى حسابهم هذا فيقول تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] ويقول ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ...﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وإذا عرفت هذه الحقيقة التى لا جدال فيها ولا مراء، والمؤيدة بالدليل القرآنى والواقع الحسى، فلماذا لا تأخذ نفسك بقول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما «**كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**. وكان ابن عمر يقول: إذا

أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»[1].

لقد آمن بذلك الأصفياء من المؤمنين فتنافسوا فى أعمال البر والخير، ولم يضيعوا على أنفسهم وقتًا يمكن استغلاله فى طاعة الله وما يعود عليهم وعلى مجتمعهم بعظيم الفوائد وجليل العوائد، حتى أعرضوا عن اللغو الذى يستهلك الوقت ويستغرق الحياة، ليكونوا ضمن المؤمنين الذين قال الله فيهم **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾** [المؤمنون: ٣] ولكن كثيرين غفلوا عن قيمة الوقت ونعمة الزمن الذى جعله الله رأس مال الإنسان، فأهملوه وضيعوه وقتلوه لهوًا وعبثًا، وفسقًا ومجونًا جريًا وراء بريق الدنيا الزائف ومتعها الكاذبة.

إن من دلائل قوة الإيمان وثبات اليقين أن يعى المسلم تمامًا نعمة الزمن وقيمة الوقت التى قررها الإسلام، قال الله تعالى: **﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾** [يونس: ٦]، وجعل فى ترادف الأزمنة وتعاقبها عبرة لأولى الألباب وتذكيرًا يدفعهم إلى طاعة الله، قال الله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾** [الفرقان: ٦٢] ويقول: **﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾** [النور: ٤٤]. وما أكرم ربنا وهو يبرز الوقت بين أمره بالتقوى بدءًا أو نهاية فى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الحشر: ١٨].

ولقد يظن بعض الناس أن الحساب يوم القيامة قاصر على الأعمال التى كلفنا الله بها فعلاً وتركًا وأن الزمن غير داخل فى الحساب، فيدفعهم هذا الظن الخاطئ إلى التفريط فى أوقاتهم والتهاون فى استغلالها، ولقد حذر النبى ﷺ من ذلك فقال: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن**

---

(١) رواه البخارى من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به»[1]، وفى ساحة الحساب الربانية التى لا تطيش فيها موازين العدالة الإلهية يكون الزمن نفسه شاهدًا على الإنسان أو شاهدًا له، تمامًا كما تشهد عليه جوارحه ومعالم عمله من الأرض وحيث كان فى أجواز الفضاء وأعماق الماء، فقد ثبت عن الحسن البصرى رضى الله عنه قوله «ما من يوم ينشق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق: يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة».

ألا وإن القرآن الكريم يقرر أن الزمن تتعاقب أوقاته رحمة من الله بعباده، للاستفادة منه بكل عمل نافع مثمر، أو الاستجمام الحلال من عمل جاد استعدادًا لعمل جاد آخر، فيقول الله تعالى: ﴿**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [القصص: ٧٣].

لو نظر الإنسان إلى أيام حياته يتفحصها لوجد أيام شبابه تستغرق أكبر قدر منها، وهى الأيام التى نبه الإسلام إليها وحث على وجوب استغلالها فى طاعة الله، وقد وعدهم على ذلك الجزاء الأوفى والأجر العظيم، وذلك لأن الجهاد النفسى فى تلك الفترة يتطلب مقاومة كبيرة لغرائز النفس وعوامل الإغراء، وانتصار الشباب فى هذا الميدان بقوة إيمانهم أمر يستحق التقدير والجزاء العظيم، ولقد أخبر النبى ﷺ أنهم فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة، فيقول: «**سبعة يظلهم الله فى ظله: يوم لا ظل إلا ظله الإمام العادل وشاب نشأ فى عبادة ربه ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقه أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[2].

وإذا كانت فترة الشباب أهم مرحلة يجتازها الإنسان فى حياته، كان لزامًا عليه ألا يضيع شبابه هباءً منثورًا، وإذا كان هناك بعض أوقات الفراغ فإن على الشباب

(١) رواه الترمذى من حديث أبى برزة الأسلمى.

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

المؤمن أن يكون أحرص الناس على اغتنامه فى أبواب البر والخير، وأن يهرع إلى القرآن فإنه خير أنيس وإن فيه نور البصائر وجلاء صدأ القلوب وشفيعًا يوم الدين، لقول النبى ﷺ **«اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»**[١].

ولا شك أن من تذوق حلاوة القرب طلب المزيد من الخير، ينفق وقت فراغه فى البحث عن أحكام شريعته والتفقه فى أمور دينه، يزود روحه وعقله، ويزكى نفسه وقلبه بما يرتشف من رحيقها وينهل من معينها، فينال خير الدنيا وسعادة الآخرة، يقول رسول الله ﷺ **«من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»**[٢].

وكما اهتم الإسلام بالروح والعقل، فقد اهتم بما يكفل للجسم قوته وحيويته، فهناك بعض الرياضات دعا إليها الإسلام ويمكن استغلال أوقات الفراغ فيها، ونستأنس لذلك برياضة الرمى التى دعا النبى فى قوله صلوات الله وسلامه عليه **«من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا أو قد عصى»**[٣]، «وقد مر النبى ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون فقال النبى ﷺ **«ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميًا»**[٤].

وأين من هذه الرياضات رياضة كرة القدم التى استهوت الناس إلا قليلاً منهم، وجعلت بعض الماهرين فيها يباعون كما يقولون بمليونى دولار أو أكثر فى ديار الغفلة عن الرياضات البانية الهادية التى لا تكسَّر فيها سيقان ولا يُلعن فيها آباء ولا جدود.

ومرة أخرى فقد عرف الإسلام قيمة الوقت ودعا الناس إلى عدم التفريط فيه، فحرص المسلمون المخلصون على الاستفادة منه على أوسع نطاق، إيمانًا منهم بأن التفريط فيه جريمة يحاسبون عليها يوم الدين، وقد يتعرض لهؤلاء الجادين بعض

(١) رواه مسلم من حديث أبى أمامة الباهلى.

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

(٣) رواه مسلم من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه.

(٤) رواه البخارى ومسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضى الله عنه.

الناس يريدون تثبيط هممهم وصرفهم عن العمل، فلنحذر أمثال هؤلاء، ولنحرص على أوقات فراغنا ننفقها فى الخير، فإن الوقت نعمة من الله يغبن فيها كثير من الناس، والرسول ﷺ يقول: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»**[1].

وإذا كان الإسلام قد حرص على الوقت ودعا إلى الانتفاع به، فإن من فضل الله سبحانه أن جعل التكاليف فى حدود طاقة البشر، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد حرص النبى ﷺ فى توجيهاته على رسم المنهج الكريم الذى يضمن للإنسان الاستمرار فى العمل واستغلال كل وقت ممكن دون ملل ولا سأم، فقرر فى توجيهاته أن العمل اليسير المتواصل خير من العمل الجاد المنقطع، فقد تندفع فى الإنسان رغبة جادة تدفعه إلى الإسراف فى العمل ثم ما يلبث تفتر عزيمته ويضعف نشاطه ويعتريه السأم القاتل فينقطع عن العمل، وهذا ما يكرهه الإسلام، والرسول ﷺ يقول **«خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»**[2].

فلنعمل شبابًا وشيبًا فى حرص على الوقت الذى سيسألنا الله عز وجل عنه يوم نقف بين يديه فيحاسبنا عن أعمالنا وأعمارنا ويجزينا سبحانه الجزاء الأوفى ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

❀❀❀

(١) رواه البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنه.

الإمام ابن رشد ومشاهد الوجود

هذه قبسات مضيئة أسهم فيها الإمام ابن رشد فيما نتوخاه بتبصير الجاحدين بأدلة وجود الصانع وقدرته سبحانه وتعالى.. فلقد أورد رحمه الله آيات كثيرة فى الجو الذى نحن بصدده نذكر منها فى دلالتها على عقيدة وجود الله وقدرته وحدوث العالم عنه.. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ٦- ١٦].

قال الإمام ابن رشد إن هذه الآيات إذا تأملها الإنسان وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم لوجود الإنسان. وقبل أن نسترسل فى هذه القبسات، أبادر فأؤكد معنى هذا الكلام -أن العليم الحكيم وهو يجعل الأكوان فى خدمة الإنسان، ولتيسير حياته، وانتفاعه بها حتى تخلص إلى ما أراده الله منا وهو يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

إنما يدل بذلك على كرامة الإنسان أولا، ثم ليدل عباده على مواطن حكمته وينابيع رحمته، وموصول إحسانه، وأنه سبحانه يوائم بين مخلوقاته، ويوثق عرى ما أوجده وأنشأه تعالى حتى تستمر مسيرة كل شىء كما أراد الخلاق العظيم.

يقول الإمام ابن رشد «لذلك ابتدأ سبحانه فنبه على أمر معروف بنفسه لنا جميعًا، وهو أن الأرض خُلقت كى يتأتى لنا المقام فيها، وأنها لو كانت بشكل أو آخر غير شكلها، أو فى موقع آخر غير الموقع الذى هى فيه، أو بقدر آخر غير هذا القدر، لما أمكن أن نخلق عليها، ولا أن نوجد فيها».

ويضيف: «وهذا كله محصور فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ وذلك أن المهاد يجمع الموافقة فى الشكل والسكون والوضع، مضافًا إلى هذا معنى الوثارة واللين، فما أعجب هذا الإيجاز».

وابن رشد رحمه الله وهو يضع قيد البصر دقة التعبير، مع وفاء التصوير، يدع لنا فرصة أن نقول:

«ما أعجب حكمة الله الذى جعل لنا الأرض ذلولا يطيب للعقلاء السير فى مناكبها والضرب فى نواحيها وجوانبها ابتغاء ما يسر الله فيها من رزق لا يمنحه غيره، والمنافسة فى أداء ما وكلنا الله به من عمل لإبلاغها كمالها الممكن، ونمضى مع ابن رشد فى قوله: «ثم نبه بقول (والجبال أوتادا) على المنفعة الموجودة فى سكون الأرض بسبب الجبال، فإنها لو كانت أصغر مما هى لتزعزعت من حركات الماء والهواء، ونزلت وخرجت من موضعها، ولهلك ما عليها من الحيوان ضرورة».

«وإذًا فموافقتها لما سيكون عليها من الموجودات لم يكن بالاتفاق، ولكن عن قصد قاصد وإرادة مريد موجود، فهى -ضرورة- مصنوعة لذلك القاصد سبحانه، وموجودة على الصفة التى قدرها.. وجاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ تنبيهًا على موافقة الليل والنهار للحيوان والنبات، إذ الليل يسترها من حرارة الشمس، كما يستر اللباس الجسد، ويقيه شدة الحرارة، ومع هذا فالليل يجعل كل ما فيه حياة يستغرق فى النوم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أى مستغرقًا بسبب الظلام.. ثم قال سبحانه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ وهى السموات، فعبر لفظ البنيان عن معنى الاختراع لها، وكذلك عن معنى ما فيها من نظام واتفاق، أو موافقة لما خلقت لأجله.. وعبر بلفظ «الشدة» عما جُعل فيها من القوة على الحركة الدائبة، فليس هناك خوف من أن تخر -كما تخر السقوف والمبانى العالية.

وهذا كله تنبيه من الخالق على موافقة الأرض والأفلاك وسائر ما فيها فى إعدادها وأشكالها وأوصافها وحركاتها لوجود ما على الأرض وما حولها، حتى أنه لو وقف جرم من الأجرام السماوية لحظة واحدة، فضلاً عن أن تقف كلها، لفسد ما على الأرض جميعًا.

ثم نبه بقـوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ على حقـيقـة الشمس بخاصـة وموافقـتها لوجـود ما على الأرض، إذ لولا الضوء لما انتـفع الإنسان والحـيوان بحـاسة الـبصـر. ونبه على هـذه المنفعـة لأنهـا أشرف منافع الشـمس وأظهرها، فـضلاً عن ضرورة الشمس لحـياة الإنسان والحـيوان والنبات. كمـا نبه الخالق سبـحانه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾. على الغاية من نزول المطر، وأنه ينزل لمكان الحيوان والنبات، وإن نزوله لها بقدر مـحدود وفى أوقات محدودة لا يمكن أن يكون عن مـصادفة، بل سبب ذلك وجود الله وعنايتـه الإلهية بالأرض وما عليهـا -«إن كل موجود فى العالم كله، أرضه وسـمائه وما بينهما وما تحت الثـرى، يدل بالنظر والتفكر على وجود إله قد أوجده على النحو الحكيم الـبديع الذى وجد عليه، وكذلك كل هذه الموجـودات من السمـوات والأرض والنبات والحـيوان بأجناسـه وأنواعه العـديدة المختلفة لم تكن قـبل موجودة وكل موجود بعد عـدم لابد من موجد، وليس هذا الموجد إلا الله المريد العالم الحكيم».

وأقول بعد هذا الكلام الـنافع، إن آيات الله لا تتناهى فى ملكوته، وهو وحده الذى يسيرها ويسـخرها لعباده ويدلهم على مكامن النفـع فيها والعبـر التى تحملها وتؤديها.. فهل نصغى إلى ربنا وهو يقول: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠] ويقـول سبحـانه: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].. فمن ذا يـستطيع أن يطيل فيـهمـا أو ينقص منهمـا لحظة واحدة؟ وحين تكون الشـمس فى الـطَّفَل، أو يلفـهـا ثوب المغـيب فى مـوقع من مـواقع الأرض، هل تستطيع قوى البشر جميعًا أن توقف مسيرتها وتغير حركتها؟ أو تردها كرة أخرى على أعقابها؟

.. ويوم ضل الناس فى القديم فعبدوا الشـمس.. وأن بعضهم فى عصر النور -كما يزعمون ليعبدها، وسجدوا للقمر، حين أخذتهم آثارهما، وسيطرا بجلالهما وعظمتهما على عقولهم، ووقفوا عند ذلك المدى منهما، ولم يعرفوا القوة الكبرى

التى تحركهما، والنور الأسنَى الذى يحدهما، والمشيئة المطلقة التى يجريان بأمرها فى منازلهما طائعين، كان وحى الله لمصطفاه:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

.. إن شرف الإنسان فى أن يعرف مولاه، وأن يهتدى بهداه، وأن يحرص على موجبات خيره ومزيد هداه، من دوام طاعته وشكره وجل الله الذى يقول:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن فوائد ابن القيم رحمه الله فى فوائده: ليس العجب من مملوك يتذلل لله، ويتعبد له، ولا يحل من خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنما العجب من مالك يتحبب إلى مملوكه بصنوف إنعامه ويتودد إليه بصنوف إحسانه مع فناه عنه، كفى بك عزًا أن تكون له عبدًا، وكفى بك فخرًا أن يكون لك ربًا».

وفى بعض الآثار الإلهية «أتحبب إليهم بنعمتى وأنا الغنى عنهم، ويتبغضون إلىَّ بالمعاصى وهم أحوج شىء إلىَّ».

.. لم تبق جارحة فينا إلا وأنعم الله تلوح لها، وتظهر فيها، وتقوم علينا حُجَج الله من جهتها وفى الناس من يقول الله فيهم:

﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. وإليهم قبل غيرهم يتجه قول الشاعر:

وليس ينفعكم ما توعظون به	والبهم يزجرها الراعى فتنزجر
إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة	كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر

وقد قررنا من قبل أن الناس أبناء الأرض منها خلقهم الله، وإليها يعيدهم حين تقضى إليهم آجالهم، ومنها يبعثهم ويخرجهم تارة أخرى:

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

أكتب هذا وأنا أطارد كلامًا انفرجت عنه بعض شفاه الغافلين، ومعذرة إن عرضتـه ليعلم كل ذى عقل أن بعض بنى آدم يحيـون فى الناس بلا عقول ولا مدارك ترفع عن طباع السـوائم فيقول بعضهم (إن الشمس جـديرة بأن يعبدها الناس- إلى آخر ما قال!!) ونحن نعبد رب الشـمس والقمر الذى ركّب الله فيهما من الخواص التى نأخذها بقدر.

وتبارك الله رب العالمين الذى جعل الشمس تظـهر وتغيب وتلين وتقسو، وتنفع الذين يقولون ربنا وسـعْت كل شىء رحمة وعلمًا. وهو شـاهد لا يغيب وحى لا يموت ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

وفى النهار شـمس وفى الليل نجوم وأقـمار أسلمت زمامـها لله الذى خلق كل شىء وبيده كل شىء وإليه المصير.

❁❁❁

الباب الثالث

أنعم الله داعية إلى توحيده

- الله يعرف عباده بذاته
- الوحدانية الحقة
- أنعم الله عز وجل داعية إلى توحيده
- بديع صنع الله
- هذا العالم المتوازن
- شواهده فى الحشرات والحيوان
- خذوا هذه الكلمات من أوروبى
- شقائق الرجال

الله يعرف عباده بذاته

إن حجة الله فى القرآن الكريم ناهضة على كل ذى عقل، وهو سبحانه يقلب أبصارنا وأفئدتنا فى مشاهد وجوده وشواهد توحيده فى الأنفس والآفاق، ويعرِّف عباده بنفسه تعالى عن طريق ما خلق ومن خلق، فالنظر فى المخلوقات يهدى إلى الخالق، وتأمل المصنوعات يدل على الصانع.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

والغفلة عن الله والكبر والغرور صوارف عن الإيمان بالله، ولولاهما لاستبان الحق لطلابه، ومضى المبصرون فى ركابه، وهم يقولون مع الراسخين فى العلم «آمنا به».

قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] من خواتيم سورة آل عمران التى قرأها الرسول ﷺ ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتدبرها» وأولو الألباب يجدون فى البحار والأنهار والنبات والأشجار، وفى الليل والنهار، والرياح والأمطار، والثمار والآثار، موجبات الإيمان بالوجود الذى يفيض عن وجوده كل موجود، ويطلون من ذلك على ما يجعلهم يقولون عن تثبت ويقين:

﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤]

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأين هذا من الكون الكبيـر الذى نجهل من جوانبه أضـعاف ما نعلم، ويخفى علينا من أسراره أكثر مـرات ومرات مما نفهم، وفى بعض ذلك غنية وبلاغ لمن أراد أن يذَّكَّر ويستبصر. لكن الهوى يعمى ويصم، وقد قال المشركون لرسول الله صلوات الله ما حكى الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

ويوم قال بنو عبد الدار: نحن صم بكم عما جاء به محمد، لا نسمع إليه ولا نؤمن به، نزل قول الله تـعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وفى غيـر موضع من كتب الإمـام ابن قيم الجوزية يطالعك قـول الله تعالى فى الحديث القدسى: «ما تحت أديم السمـاء من إله يعبد أضل من هوىً متبع»... ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]..

إن آيات الله من الكثرة والوضوح فى الكون إنسه وجنه وحيوانه ونباته ومكوناته فى علو وسفل، وفى القـرآن الذى يسره الله للذكر، وأدنى حقائقـه للفكر –وقال فيه رب العالمين.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

.. ولم يسع الجن إذ سمعوه إلا أن يذعنوا له ويؤمنوا به ويدعوا غيرهم إليه.. وذلك قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

وامتنان الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]. مرات فى سورة القمر له دلالاته ومغزاه لو كنا نسمع..

أجل –إن آيات الله فى الأكوان والقرآن من الكثرة والوضوح بحيث يصدق فيها قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]..

وماذا يكون من يستبدل الإجرام بالإيمان؟!

.. إن العقل وهو مناط التكليف فى الإنسان، وموضع التشريف فى أهل الإيمان، هو تلك اللطيفة الربانية التى يقول فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه:

«رب من أعطيته العقل فماذا حرمته ومن حرمته العقل فماذا أعطيته»؟!

وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه كما قال الفتى فى وفد الحجاز مهنئا باسمهم خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، فكبر فى عين أمير المؤمنين بعقله وعلمه..

هذا العقل قد ندب إلى التفكر فى مخلوقات الله لا فى ذاته تعالى شأنه، وكثير من الأشياء الضرورية لا يجدى التفكر فى ذاتها، ولا يكاد المرء يسبر غورها، أو يلم بأطرافها، وسعادة المرء بالزهرة الجميلة فى منظرها السخية فى شذاها وعطرها، قد تتلاشى إن تجاوز المرء منها هذا المدى فراح يفلسف ما وراء الشذى والنضرة والاتساق فى الأوراق ومواءمة بعضها بعضًا فى تركيب إلهى فائق.. وهل وراء ذلك إلا ماء يجرى فى عود وأوراق؟!

وما أعظم حكم الله فى هذه الأوراق التى تتفطن إليها الحشرات ويجهل الإنسان لبعض أسرار الله فيها.

«فانظر كيف جُعلتْ هذه الأوراق الجميلة فى الزهرة، حلقة اتصال بين النبات والحيوان حتى يستخدم النبات الحيوان فى عملية التلقيح الضرورية للإثمار» ووصل بنا السيد رشيد رضا إلى اللباب فقال حاكيًا عن الشيخ محمد عبده -رحمهما الله-:

«كل ما فى الكون ينبئك بوجود حكمة عالية، وإرادة سامية، وسيطرة قوية، ونواميس فى غاية الدقة والإحكام يسير عليها هذا الوجود، وربُ هذه الحكمة، وصاحب هذه العظمة، وواضع هذه النواميس هو: الله.

هذا العقل قد نُدب إلى التفكر فى مخلوقات الله، لا فى ذاته تعالى، وكثير من الأشياء الضرورية لا يجدى التفكر فى ذاتها، ولا يكاد المرء يسبر غورها أو يدرك

سرها، وغاية ما يريده الله منا أن نخلى لعقولنا فى خصائصها لتبلغ من آثارها وثمارها أقـصى ما يكون فى متناول المخلوق.. يقول الإمـام الشيخ حـسن البنا -رحـمـه الله- فى رسـالة «الـعقـائـد» بعنوان «ذات الله والعـقل البشرى»:

هذا العقل الذى نحاول أن ندرك به ما لا يدرك من حقيقة ذات الله، لا نستطيع أن ندرك حقيـقته، ولا أن نعرف كنهه هو، لكننا ندرك بالعـقل الحاكم للحواس، والمهيمن عليها كثيرًا من المدركات والآثار، ورحم الله الذى قال:

لولا العـقـول لكان أدنى ضـيـغم أدنى إلى شـــرف من الإنســـان

والذى قال ونصح:

قـد رشـحـوك لأمـر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل!!

❁❁❁

الوحدانية

وحدانيـة الله تعالى الحـقة هي الإسـلام وحده، كمـا كانت رسـالة كل رسول ودعوة كل نبي ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وأي كلام تنشره صـحيفة أو تدعو له مؤسسـة، وأي حوار في الداخل والخارج حول ما يسمى «وحـدانية التثليث» أو محاولة إثبات عـلاقة بين الإسلام في تفرده بأنه «دين الوحدانية» وبين «وحدانية المسيحية» إنما هو كلام يحمل «حيثيات» تكلفة بطلانه، وهو ترديد لآراء ومـزاعم كـر عليهـا القرآن الـكريم من قديم بحـججه وبراهينه على نحو لا يدع حاجة إلى بينة «أو شاهد».

إن «روما» ما زالت تزيد وتنقص في بعض الكتب السمـاوية، وتفسر فيما وراء ذلك من نصوصه البشرية التي لا حيلة لها بالسـماء أبدًا، ابتغاء دنيا مؤثرة، إرضاء لهذا الذهب أو تلك القوة المسيطرة فما لروما والإسلام؟

- إن من الظلم بمكان أن نقارن بين «الوحدانيـة في الإسلام» وهي كل الإسلام عقـيدة وعبـادة وسلوكًا، إلا حين يكون ثمرة علم واثق بأن الله يـرانا ويعلم سرنا ونجوانا، وما يزكو عـمل إنسان لم يعتبر بالحق يعتقـده ويقوله ويدعو إليه ويقنع به الآخرين بشـرط الإسلام في الحكمـة والموعظة الحسنة، وأن نـرى في نور الإسلام فرق مـا بينه وبين الرسالات السماويـة التي أدى المرسلون أمانتها، وجـاء الإسلام بعدها مهـيمنًا عليها، قائمًـا مقامها، وذاهبًـا بعالميته إلى مخـتلف جوانب الدنيا، وحيث يعـيش عاقل واحد تعتـبره رسالة رحـمة الله للعالمين محـمد ﷺ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

إن عيسى عليـه السلام قد دعا الناس إلى عبادة الله -وحـده- شأن موسى ومن تقدمـهما وقـفى على أثرهما حـتى قال تعـالى لخاتمهم صلوات الله عليـه وعليهم أجمعين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفلاسفة اليونان والحكماء الأسوياء قد أنفقوا أعمارهم فى توكيد توحيد الله، فقرب أكثرهم من الحقيقة الأزلية الأبدية حينًا وضل عنها آخرون وقعدت ببعضهم عقولهم ووسائلهم عن الاهتداء إلى هذه الحقيقة التى تتراءى وتثبت بالفطرة ولأول نظرة وفكرة.

هذا سقراط يقول يومًا لتلاميذه «يجب أن تعرفوا أن إلهكم واحد».

وقال أفلاطون «الله واحد لا شريك له، وإلا لحدَّ الشريك من سلطته التى لا تثبت له الكمال، إلا إذا كانت لا حد لها».

وهو بهذا يرى نورًا من قول الله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩١].

ويقول «أرسطو» مما يدل على وحدانية الله: انتظام العالم وتناسق حركاته.

ومرة أخرى فإننا نذكر بقول الله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

أيبقى توحيد الله وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد، موضوعًا شائكًا يحتاج إلى الطرح والحوار والمناقشة، كما قال أحد الصحفيين وهو يتحسر لأن كاتبة واحدة هى التى كتبت إلى روما فى هذه المسألة البالغة الخطورة السياسية والاجتماعية والثقافية، واهتم به «فى روما» منظمو ندوة «الوحدانية فى الإسلام والمسيحية»؟!. لقد زعموا أن بعض المفكرين فى الداخل والخارج يقهرهم «وهم» من الأوهام، فلا يزال بهم، أو لا يزالون به حتى يحاولوا أن يشغلوا الناس عن «التوحيد» الذى هو كما أسلفت لب الإسلام وقلبه وإطاره ومحتواه، ومنطلق المسلم الذى يقول مع الشاعر:

وغضضت طرفى عن سواك فلم أجد ... فى الكون غيرك من إله يُعبد

والعلم المجرد من أهواء الأدعياء يبرز بكثرة مثل قول «هرمش» الإنجليزى.. «كلما اتسع نطاق العلم، كلما ازدادت البراهين الدافعة على وجود خالق أزلى واحد، لا حدًّ لقدرته، ولا نهاية».

وتاريخ النصرانية حافل بكثير من شهداء «التوحيد» الذين أعلنوا شهاداتهم بالوحدانية المبرأة من الإضافات التى تشيع فى «أجواء النصرانية المعاصرة».

وقد يكفى مثلاً «أريوس» فقد قرر أن الله -وحده- هو الإله الأصلى الواجب الوجود، أما الابن والروح القدس، فهما كائنان من خلق الله»!!

وترتليان الفيلسوف النصرانى يقول: «إننا بريئون من الذين ابتدعوا رواقية، أو أخلاطية، أو جدلية بعد المسيح والإنجيل، لسنا بحاجة إلى شىء»!!

ثم إن «إلهية المسيح»، ومكانه فى الثالوث مما أنكره جهرة الأسقف «نسطور» واسالوا التاريخ..

إن نسطور يقرر أن المسيح عليه السلام، إنسان كسائر الناس مملوء بالنعمة والبركة..

وتابعه فى ذلك كله علماء من النصارى معاصرون، لا يصعب على من يريد مزيدًا من النصوص تحصيل كلامهم..

«إن بعض الديانات الكبيرة التى نشأت على الشرك.. كما يقول السيد أبو الحسن على الندوى فى كتابه «السيرة النبوية» ونشأت على تعدد الآلهة، وامتزجت به لحما دومًا، اضطرت فى الأخير إلى أن تعترف.. ولو بصوت خافت، وهمسة فى الآذان.. أن الله واحد لا شريك له، وأرغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفيًا يبرئها من تهمة الشرك والبدعة، وتجعلها متشابهة لعقيدة التوحيد فى الإسلام بقدر ما، وبدأ رجالها وسدنتها يستحيون من الاعتراف بالشرك، ويخجلون من ذكره، وأصيبت هذه الأنظمة المشركة كلها بمركب النقص، والشعور بالصغار والهوان».

إن تفرد الإسلام بالوحدانية على مستوى لا يُذْكر معه أى «توحيد» فلسفى فى «المسيحية» أو غيرها . .

ومن خلال العقول، وفضول القول، أن نظلم الحكمة فنجعلها عنوانًا لكلام نصرانى قومى عاش بفكرة سياسية تغلف حقدًا دفينًا على الإسلام، ومات صريع ضلاله، فلم يجد بعض الكاتبين ما يشغل حيزًا فى صحيفته إلا قول هذا القومى:

«كلنا مسلمون، منا من أسلم لله بالقرآن . .

ومنا من أسلم لله بالإنجيل . .

ومنا من أسلم لله بالحكمة . .

أى إسلام يعنى هذا «الحكيم» والله تعالى يذكر لنبيه الخاتم ورسوله محمد ﷺ بعض ملامح الإيمان ليأخذ به من ادعوا أن الهدى فى اتِّباع اليهودية أو النصرانية. ثم قال:

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٧-١٣٩].

فهل أخلص يهود ونصارى العقيدة، وجردوا القصد فى العبادة، وتوجهوا إلى إله -وحده- فى كل أمر؟!

إن بعض الكاتبين يحلو لهم أن يزجوا الناس فى «متاهات» مثل هذا الكلام الذى تسود «أقلامهم» به بعض الصحف، ويشغل الناس عن التزام الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكًا وصدق توجُّه لله، مثل «ندوة روما الشغوفة بالوحدانية التى حاولت أن تعقد نسبًا بين «الإسلام والمسيحية» فيما على ما هى عليه الآن، لا على ما كانت عليه، وعيسى عليه السلام يبرأ ممن أشركوه وأمه مع الله فى الألوهية والعبودية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

إن الإسلام مستهدف، يصطلح على الإشغاب عليه كثيرون، وما يجهل أحد هذا التمازج الظاهرى القائم بين إسرائيل ونصارى أحد أقطارنا فى مواجهة المسلمين من خارج هذا القطر ومن داخله، ولا بأس على الإسلام من تآمر إن وعينا نحن الإسلام والتزمناه وحمينا حماه، واستعنا فى ذلك بالله لا بالذين يناصرون أعداءنا جهرة، ويعتقدون معهم ما أعلنته أميركا من تعاونها مع الصهيونية التى تخسر ميزان الانتخاب لمن لا يجرون معها فى سباق الضلال والنفاق.

وحرب الإذاعات من أم درمان وقبرص وغيرها وهى تبشر بالإنجيل، وحركات الإثم من حولها وهى تقتنص السذج وضحايا الفقر والمرض فى أقطار وديار تلقى الدعم فى وجوه الذين يتنادون لإثبات وحدانية نصرانية فى مواجهة الوحدانية الحقة التى ورثها الإسلام من رسالات الله الأولى، ووحى الله فى الدين الخاتم فطرة الله التى فطر الناس عليها.

❀❀❀

أنعم الله عز وجل داعية إلى توحيده

إن الله الرحيم بعباده لم يأمرهم بالإيمان به قبل أن يرطب قلوبهم بحوافز الإيمان من آلائه ونعمائه وفضله المترادف فى أنفسهم، وفيمن يحبون وما يحبون بمثل قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٤-١٨].

ورفقُ الله بعباده، وهو يهديهم إليه، ويدلهم سبحانه عليه، ويسوقهم سوقًا لينًا إلى الإيمان به زادٌ وريٌّ لسالكى الطريق إلى ربهم، وأنس لقلوبهم حتى لا تشعر أنها وحدها بغير هدىً من الله، وهى تستجيش النظر، وتُعمل الفكَر، وتواصل التأمل والاستبصار.. يقول أحد العلماء «إن الذى رأيناه من خلق المخلوقات من السماوات والكائنات والجمادات والحيوانات والنبات، من النظام فى الشخص الواحد والأشخاص الكثيرة والأنواع المختلفة، دل على أن الأفعال فيها ترجع إلى حكيم يسوق الأوائل إلى غايتها والأوائل إلى نهايتها، ويجمع بينها على كل حالة يستبقى بعضها ببعض وينتفع بعضها ببعض، كما ترى فى النبات أن العرق الناشب فى الأرض لاجتذاب الماء من أعماقها، مخلوطًا بما يجرى عليه، وينجذب معه من لطائف الأرض فى انجذابه وسيلانه حتى يصير غذاءً للنبات، ثم يحمله إلى الساق الواحد الذى يصير أرضًا فوق الأرض، بل واسطة بين النبات والأرض، حتى ينقل مواضع الثمر من الشجر عن الأرض إلى الجو الذى يبقى فيه الهواء المنضج،

ويتلقى الأفعال السماوية من جهة القوى الروحانية ثم تتفرق الأغصان فى الجهات، حتى لا تتزاحم الثمار، وتكثر بقدر كثرة المادة التى يحملها الساق من تلك العروق، ومن تلك المياه الغائرة، فعروقها تشب فى الأرض لأخذ المادة الجسمانية، وفرعها صاعد فى الجو لاستمداد القوى الروحانية، فيعيش هذا بإمداد هذا، وهذا بإمداد ذاك..»

ثم ضرب مثل النخلة التى تحدث بقطع القلب الذى هو الرأس الأعلى، وتجف العروق الناشبة فى الأرض السفلى مع بقاء المادة عندها، كما يحدث للقلب بانقطاع العروق الممتدة أيضًا.. هذا ولا يعرف أحدهما مصلحته بالآخر، فالعقل والنظر يشهدان بأن الخالق المصوِّر جمعهما بحكمة ومعرفة بمبدأ حالهما ومآلهما» وصدق الله العظيم: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].. ورحم الله الإمام الشوكانى فقد قال فى تفسيره لهذه الآية «وفى هذا من الدلالة على بديع صنعه وعظيم قدرته ما لا يخفى على من له عقل، فإن القطع المتجاورة، والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات مع كونها تسقى بماء واحد، وتتفاضل فى الثمرات فى الأكل، فيكون طعم بعضها حلوًا، والآخر حامضًا، وهذا فى غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق فى صنعه وهذا غير فائق، مما يقطع لمن تفكر واعتبر ونظر نظر العقلاء أن السبب المقتضى لاختلافها، ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه، وتعالى شأنه، لأن تأثير الاختلاف فيما يخرج منها، ويحصل من ثمراتها، لا يكون فى نظر العقلاء إلا لسببين: إما اختلاف المكان الذى هو المَنْبَت، أو اختلاف الماء الذى تسقى به، فإذا كان المكان متجاورًا، وقطع الأرض متلاصقة، والماء الذى تسقى به واحدًا، لم يبق سبب للاختلاف فى نظر العقل، إلا القدرة الباهرة والصنع العجيب، ولهذا قال الله سبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى يعملون على قضية العقل وما يوجبه، غير مهملين لما يقتضيه من التفكر فى المخلوقات، والاعتبار فى العِبَر الموجودات»..

ويقول أحد المفسرين لهذه الآية «وذلك يدل دلالة واضحة على وجود صانع يدبر الأمر بقدرته، فالقطعة الواحدة التى تسقى بماء واحد، ويكون تأثير الشمس فيها متساويًا تنبت ثمارًا مختلفة فى الطعم واللون والطبيعة والخاصية، هذا يدل على وجود مدبر فاعل مختار.. فلهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالذين يتفكرون فى هذه الأحوال لا يتأخرون عن الجزم بأن الخالق سبحانه وتعالى الذى خلق الآثار المختلفة فى الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتجاورة بقدرته».

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى كتابه «رسالة التوحيد» تحت عنوان «أدلة علم البارى وحكمته ومظاهرهما فى الوجود» (اعتبر بما تراه فى جزيئات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج إليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك فى مواضعه من أبدانها، وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما يلائمه. فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق. وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق، وإرشاد الحواس منها إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء وسوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له..]..

ثم قال فى نهاية بحثه النافع المقنع (هذا الصنيع الذى إنما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شىء؟ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق والمصادفة أن يكون ينبوعًا لهذا النظام؟ وواضعًا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها؟ كلا، بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم)..

ولقد وجدت الأستاذ سيد قطب رحمه الله يقول فى هذه الآية فى ظلال القرآن (مَن غير الخالق المدبر المريد يفعل هذا وذلك!! من منا لم يذق الطعوم مختلفات فى نبت البقعة الواحدة؟ فكم منا التفت هذه اللفتة التى وجه القرآن إليها العقول

والقلوب؟ إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديدًا أبدًا، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد فى الكون والنفس، وهى لا تنفذ ولا يستعصيها إنسان فى عمره المحدود، ولا تستعصيها البشرية فى أجلها الموعود، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾..

ومرة أخرى نقف أمام المتقابلات الفنية فى اللوحة بين القطع المتجاورات المختلفات، والنخل صنوان وغير صنوان، والطعوم مختلفات والزرع والنخل والأعناب..

تلك الجولة الهائلة فى آفاق الكون الفسيحة يعود منها السياق ليعجب من قوم هذه الآيات كلها فى الآفاق لا توقظ قلوبهم ولا تنبه عقولهم، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر، وقدرة الخالق، كأن عقولهم مغلولة، وكأن قلوبهم مقيدة فلا تنطلق للتأمل فى تلك الآيات..

ألا تقول معى أخى العاقل عفوك اللهم ومغفرتك، فكلما أخذت الإنسان حجة من أدلة الوجود، ومشاهد التوحيد، صاحت به أخرى، فلا يكاد يلتفت إليها ويقبل عليها ويذعن لها ويؤمن بها، حتى تغلبه على نفسه حجة وحجة، ودليل ودليل ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]..

وأرانى أقف أمام الإنسان موضوعًا لهذه القضية الكبرى وهو وجود الله، فإذا بأنوار هذه الحقيقة تقدم من عالم الأرض والسماوات والنبات ومختلف الكائنات ما يبهر العقل ويستحوذ على الفؤاد، حتى يسلس له القياد عن رضًا وارتياح.. وما تزال جوانب فى الإنسان لم نعرض لها، وقل مثل ذلك فى أقطار الأرض والسماوات حتى ليجد المرء أعذارًا كثيرة (لكاميل فلاريون) العالم الفلكى الذى أنفق عمره الطويل وراء المجاهر والآلات الكاشفة يرصد الأفلاك ويستملى الكواكب ويرهف السمع لما تتحدث عن مكوكبها الممسك بأزمة السابحات فى الفضاء، فلما أشفى على الموت، وكاد يرسل نَفَسه الأخير قال: «يعجز المخلوق عن أن يحيط بكنه هذا الكون العجيب»!!

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وصلوات الله وسلامه على رسوله الذى قال «**عجبًا لمن قرأ خواتيم سورة آل عمران ولم يتدبرها**»، ولقد دخل الصحابة على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بعد أن آثر الرفيق الأعلى فقالوا لها يا أم المؤمنين: حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فأجهشت بالبكاء ثم قالت: وأى شىء لم يكن عجبًا من أقواله وأحواله ﷺ (لقد دخل علىّ ليلة وجمعنى وإياه الفراش فلما مسّ جلده جلدى فقال: **يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى عز وجل**. قالت: فقلت يا رسول الله إنى أحب قربك ولكنى أؤثر هواك) والحادثة ذكرها الإمام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات من خواتيم سورة آل عمران وفى عظة وبلاغ وبعث وإيثار لطاعة الله تبارك وتعالى حتى نكون من أولى الألباب الذين ذكرهم بنعوتهم وسماتهم فى تلك الآيات من آل عمران إحدى الزهراوين..

وما أكثر ما يتوافد على عقلك وقلبك من أعاجيب شاهدة دالة على وجود الموجد ووحدانية الإله الواحد وبديع صنعه تبارك وتعالى فى كل ما خلق ومن خلق..

ويوم جاء رجل إلى رسول الله تكاد تهلكه الشكوك والرِيَب فى زوجته التى ولدت له ولدًا يميل إلى غير ألوان إخوته الذين نَسَلَهُم أبٌ واحد وأمٌ واحدة، سارع الرسول عليه الصلاة والسلام ليطفئ شرارة من الاتهام لو تُركت لاستحالت ضرامًا يأتى على البيت من القواعد، فسأل الرجل: **ألك إبل؟** قال: نعم، قال: **فما ألوانها؟!**. قال حمر. قال: **هل فيها من أورق خالطت فيه الحمرة البياض؟!** قال: نعم. قال: **فمن أين جاء الأورق إلى الإبل؟** فقال الرجل: عسى أن يكون نزعه عِرق «أى جاء على لون أحد جدوده»، فقال الرسول: **وابنك هذا عسى أن يكون قد نزعه عرق**.. فاستلّ الرسول بحكمته ورفقه من قلب ذلك الرجل كل شبهة، وحفظ

الرءوف الرحـيم صلوات الله عليـه على ذلك البـيت أمنه وصـفوه واستقراره..

ومرة أخرى ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وأرانى أمام ما قال الفخر الرازى فى خواتيم سورة آل عمران أمام بحر لا يدرك الطرف مداه ولا العـقل غيـر النذر اليسيـر منتهـاه من دلالته على وجـود الصانع وحكمته من أدلة ليس وراءها مقنع وهو يقـول: (اعلم أنه سبحانه وتعالى لما حكم بالفردانيـة والوحدانية ذكر ثمـانية أنواع من الدلائل التى يمكن أن يستـدل بها على وجوده سبحانه أولاً على توحيده، وبراءته عن الأضداد والأنداد ثانيًا»[1].

وقـال الإمام رحـمه الله تعـالى: (روى أن عمـر بن الحسـام كان يقـرأ كتـاب المجسطى على عمر الأجـهرى. فقال بعض الفقهاء يومًا: مـا الذى تقرؤنه؟ فقال: أفـسر آية من القـرآن وهى قوله تعـالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا...﴾ فأنا أفسر كيفية بنيانها. ولقد صدقه الأجهرى فيما قال: (فإن كل من كان أكـثر توغلاً فى بحار مـخلوقات الله تعالى كـان أكثر علمًا بجـلال الله تعالى وعظمته)[2] ونحن نقول ما قال، سائلين الله مزيدًا من العلم به وبما خلق» «آمين».

❁❁❁

---

(١) تفسير الفخر الرازى «مفاتيح الغيب» ص١٩٦ جزء ٣، ٤ طبعة دار الفكر.

(٢) تفسير الفخر الرازى «مفاتيح الغيب» صـ١٩٩ جزء ٣، ٤ طبعة دار الفكر.

بديع صنع الله

كم فى القرآن المجيد من لوحة فنية تبهـر الناظر وتأسر الخاطر، وحجة عقلية لا يجد المنصف عنهـا منصرفًا، فدلالة القـرآن -كما قال الإمام ابن الـقيم الجوزية - سمعيـة عقلية قطعية يقينية لا تعـترضها الشبهات ولا تتداولهـا الاحتمالات، ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها جيدًا. .

وكم فى الكون المشهود من آية تستـبى الخاطر وتسكت جدل المجادلين فى آيات الله بغير بينة من أمثال أولئك الذين عناهم الله سبحانه فى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. .

والمؤمن لا يمل أبدًا شيئًا من كلام الله، ولا يستثقل النظر المتتابع فى مخلوقاته، فهى تروى فـيه شـجرة الإيمان، وتزيد فى واجب الوجـود يقينه، وتعطيـه ما ينفع ويفـيد مما خـاطب الله به رسوله صلوات الله عليـه وهو يلقى المشـركين فيـعرض مقالتـهم، ويسقط حجتـهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٦-٦٩].

إن الآيات تدل فى بعض جوانبـها على الصانع أولاً ثم على حكمتـه وحقه فى أن يُعبد ويوجد، وأن الذين يرتابون فى شىء من ذلك ويُشاقُّون فيه على غير هدى من أمرهم، ولا صواب فى تصرفهم، ولا سلامة فى مداركهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس: ٣٢]..

ومرة أخرى فلن نحصى آيات القرآن التى تلفت الأذهان إلى أدلة إثبات الصانع الحكيم -وهو ثابت ودليل على كل شيء -وليت ذلك يمكن.. إن مجرد سرد هذه الآيات من مواقعها فى سور القرآن متاع روحى وعقلى لا ينفد، وهو مع ذلك عمل صالح للقارئ والسامع على سواء.. وليس فى دنيا الناس شيء يأخذ العناية التى منحها الله لكتابه الباقى وللذين يصلون أنفسهم به على أية صورة هادية من صور الالتزام والاهتمام..

وعن قتادة رضى الله عنه قال: كان أنس إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا!!، وإنه لدعاء يرتفع لا محالة إلى السماء بجناحين من ذكر وطاعة، يغلفهما إخلاص لله الذى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]..

وما أكرم أن يحرص المرء على أفعال الخير يحشد إليها أهله، ويجمع عليها ولده، فيدرب هؤلاء وهؤلاء على الصالحات، وفى القمة من ذلك كتاب الله حفظًا أو تلاوة وتدبرًا أو تمثلاً..

وجزى الله أوائلنا خيرًا بقدر ما شرعوا لنا من سنن الهدى، نقلاً أمينًا عن الثقات وحرصًا على مرضات الله، ومزيد هداه..

وقد قالوا ليوسف بن أسباط: بأى شيء تدعو إذا ختمت القرآن؟ فقال: أستغفر الله من تلاوتى، لأنى إذا ختمته ثم تذكرت ما فيه من الأعمال خشيت المقت، فأعدل إلى الاستغفار والتسبيح..

وقرأ رجل القرآن على بعض شيوخه.. فقال: فلما ختمته، أردت الرجوع من أوله، فقال لى الشيخ «اتخذت القراءة علىَّ عملاً، اذهب فاقرأه على الله، وانظر ماذا يُفهمك منه، فاعمل به» ومرة أخرى: ليتنا ونحن نناجى الله بكلامه، نسأله أن يرشدنا إلى إحكامه وأحكامه، وإلى مغازيه ومراميه، وإلى أن نكون معه غادين

ورائحين، ومصبحين وممسين، وعلى كل حال، وأعمالنا وأقوالنا ترجمان وبيان لما أراد الله من الإحسان إلينا والإنعام علينا بكتابه، فمن كان القرآن نور قلبه وحركة جوارحه هُدىً إلى الصواب وأوتى الحكمة وفصل الخطاب فكان للناس هاديًا وقائدًا إلى التى هى أقوم..

ومن الدعاء المأثور فى ختم القرآن بعد حمد الله والصلاة والسلام على مصطفاه.. (اللهم إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمائك، نواصينا بيدك، ماضٍ فينا حكمك، عدلٌ فينا قضاؤك، نسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا وغمومنا، اللهم ذكِّرنا منه ما نسينا، وعلِّمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذى يرضيك عنا، اللهم اجعلنا ممن يحل حلاله ويحرم حرامه ويعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويتلوه حق تلاوته، اللهم اجعلنا ممن يقيم حدوده، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده، اللهم اجعلنا ممن اتبع القرآن فقاده إلى رضوانك والجنة، ولا تجعلنا ممن اتبع القرآن فزجَّ فى قفاه إلى النار، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا أرحم الراحمين)(*).

والدعاء خفق قلوب وضراعة أوَّاب منيب، عارف لمولاه، خاشع لربه راج مزيد هداه وكرمه ونداه، ونعمة رضاه فى الحياة، ويوم نلقاه ليس معنا من مالنا مال ولا من جاهنا جاه كما قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]..

وحين يستعصى عرض آيات الله فى كتابه المقروء وفى كتاب الكون المشهود فلا غنى لنا عن عرض آيات من هذه وهذه وإن كانت حجة القرآن أقوى، وصلا لما أسلفنا من ذلك بالتفصيل تارة وبالإجمال أخرى، والله المستعان على كل خير..

(*) رواه أحمد من حديث عبد الله بن مسعود.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: ٢٩-٣٥]. .

يقول الإمام الشوكانى فى تفسير «فتح القدير» بعد إيراد هذه الآيات «ذكر سبحانه بعض آياته الدالة على كمال قدرته الموجبة لتوحيده وصدق ما وعد به من البعث». .

والسماوات التى خلقها الله، كما امتن بذلك فى هذه الآيات وغيرها، والتى رفعها كما قال ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، وقال ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..﴾ [الرعد: ٢]، وقال ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقال ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقال ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] وقال ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٨]. . هذه السماوات واحدتها سماء. . وهى فى اللغة كل ما علا الإنسان من السمو أى العلو. . قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا...﴾ [الأنبياء: ٣٢]. .

فهذا الفضاء اللانهائى سماء، والسحاب سماء، والكواكب سماوات، يقول الأستاذ محمد مسعود رحمه الله فى تقديمه «السماوات السبع المذكورة كثيرًا فى القرآن هى هذه السيارات السبع، وهى طباق أى بعضها فوق بعض، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره، والأرض إحدى هذه السيارات، ولو لم تعتبر سماء بالنسبة للإنسان، لأنه يعيش عليها، فالسيارات الكبيرة وإن كانت ثمانية إلا أن سبعًا منها فقط هى التى تعلو الإنسان، فهى السماوات بالنسبة له. . «حتى استأنس بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. .

قال الإسكندرى «وطباقا يحتمل أن يكون معناها كون السماوات متوازنة لأن لكل كوكب حيزًا، وهذه الكواكب مجموع الأجرام السماوية التى لا حدَّ فى الفضاء لها، وتكون طباقًا باعتبار حركاتها وحيزها وطبيعتها، فإنها تنقسم إلى نجوم وشموس وكواكب وتوابع وذوات أذناب، وكلها بحسب الظاهر طبقات على حسب البعد عنها» . .

إن النظر فيما حولك وفيما يعلوك وفيما يبدو لك فى الأرض التى أمرك الله أن تمشى فى مناكبها، وتأكل من رزقه، متاعٌ للأنفس والأرواح التى تستشرف كمال الله وجلاله وكماله ورحمته فى كل ما خلق لمصلحتك أنت أيها الإنسان الذى تغطى على مداركه الأهواء والشهوات، إلى المدى الذى يقول الله تعالى فيه ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] . .

ولو أنهم أرهفوا السمع لهداية مثل هذه الآية لانطلقت بهم إلى السيادة والتمكين فى هذه الحياة على نحو ما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] . .

لقد وضح السبيل واستبان ما أراد الله من عباده، ولكن أين الأسماع التى تدرك والأبصار التى ترى والقلوب التى تفقه يا أولى الألباب.

❁❁❁

هذا العالم المتوازن

إن هذا الذى مرّ بين يديك من آيات الله المتلوة مسطوراً فى كتابه يتجلى لكل ناظر بيسر مرئيًا على صفحات الكون الكبير وهو فى حاليه حجة على من يعقلون فوق الحجة المركوزة فى أعماقنا وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها وصبغته والجبلة التى لو بقيت فينا كما طبعنا الله عليها لأخذت بأيدينا إلى الإيمان الحق والعقيدة الوثقى وليس عجبًا أن يقول الله تعالى لمصطفاه.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فإن معالم الهدى فيه مجلوة ومن التمس الهدى فى غير القرآن أضله الله.

ولم يصطنع رسول الله فى استنزال المشركين من الشرك إلى التوحيد وعن عبادة ذواتهم إلى عبادة فاطرها وبارئها ومبدع الأكوان من حولها، لم يصطنع صلوات الله عليه غير القرآن الذى يسره الله للذكر.

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول لقومه بأمر ربه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] ولو أجدى على القوم شىء فى الطريق إلى الإيمان والإحسان والدين القيم لزود الله به مصطفاه ولما خاطبهم بمثل قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وما تزال حجة القرآن وحدة قائمة على الناس جميعًا ما دام غير محجوب بأهواء الذين فى قلوبهم عليه كخز المُدى وما دام كالعهد به منذ أوحاه الله إلى مصطفاه يصغى إليه وينصت له ولا يقدم عليه أى كلام لمتكلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ولقد نعى الله على أقوام يستبشرون بغير كلام الله ويشمئزون إذا دعوا إلى وحيه وهداه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ

الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وجلّت منه الله لكتابه لرسوله وهو يقول:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦].

وإنما يؤمن بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه وأجليت عنه سحائب غيه وانكشف عن قلبه حجاب.

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه ويلوح له صباح هو ليله وظلامه، فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

ثم تأمل وجه كونها آية وعلى ماذا جعلت آية على مطلوب واحد أم على مطالب متعددة وكذلك سائر ما فى القرآن من هذا النمط كآخر سورة آل عمران وكقوله فى سورة الروم ومن آياته . . . ومن آياته.

وفى سورة النمل ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ . . . ﴾ [النمل: ٥٩] وأضعاف أضعاف ذلك فى القرآن.

وكقوله فى سورة الذاريات ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. وقوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فهذا كله من الحق الذى خُلقت به السموات والأرض وهو الحق مقارن لوجود هذه المخلوقات.

وأود أن يكون القارئ قد استجلى من خلال هذه الآيات آية كبرى، إنها التناغم والتوافق والانسجام التام القائم بين هذه المخلوقات علويها وسفليها وتناغمًا وانسجامًا قائمًا بين الإنسان نفسه وبين هذه الكائنات التى خلقها الله للإنسان المكلف المستخلف وقد قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ولا أكاد أفهم ولا أحد يفهم أن يخلق الله للإنسان شيئًا ينفر عنه أو يختلف معه حين نأخذه بأسباب ربانية ونحاول أن نستعمله ونتعامل معه على أساس من هدى الإيمان وسداد الفطرة وصدق النظرة أن الإنسان عند ذلك سيرى جلال الصنع وعمق الحكمة وفيض الرحمة فى المخلوقات التى تقود الأسوياء إلى الله انطلاقًا من القرآن وسيرًا مع شواهد الأكوان والنظر فى خوالج الإنسان.

وجل الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ولعلك على ذكر من الآيات القرآنية التى مرت بك ولعلها تستثير فى ذهنك وتصورك ما لم نذكر من أمثالها، لأقول مع ابن قيم الجوزية فى كتابه «بدائع الفوائد» فى مقام الدلالة على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله وأنّ لقاءه حق لا ريب فيه:

«ومن نظر فى الموجودات ببصيرة قلب رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد، لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالاً على فاطره وبارئه وعلى وحدانيته وعلى كمال صفاته وكمال أسمائه وعلى صدق رسله وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه، وهذه طريقة القرآن الكريم فى إرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنبوات، فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلاً ولا عبثًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ..﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]..

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

ولقد أوردت هذه الآيات التى ألمح إليها ابن قيم رحمه الله وهو يقول: «ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما شاهدوا أدلة صدقه وبما لو تأملوه لرأوه مركوزًا فى فطرهم مستقرًا فى عقولهم وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عنه من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته.

إن الروح مركوز فى أصل فطرتها وخلقتها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا فى نفس روحه وذاته وفطرته، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته والشهادة بأنه لا إله إلا هو والإيمان برسله وملائكته ولقائه.

❁❁❁

شواهده فى الحشرات والحيوان

إن كمـال الله وجلالـه عز شأنـه يجلوه كل شىء؛ والقرآن الكريم يعـرض من مخلوقات الله بعض الحـيوانات وشيئًا من الحشرات التى لم يـخلقها الله عز وجل عبثًـا؛ ولكنها تحمل من أسرار الله ما يجـعل المؤمن يقول آمنت بالله رب كل شىء ومليكه؛ وكم جهل أقوامٌ فقالوا: مـا للقرآن الكريم يذكر النمل والنحل والبعوض والقمّل والضـفادع وغـيرها من الحشـرات؛ وما لكتاب الله يذكـر الخيل والبـغال والحمـير والبقـر والجمـال والماعز «والذين يقولون ذلك القـول خُلقاء أن يوصـفوا بالجهل، فالقرآن الكريم كـتاب الرسالة الخاتمة المستوعبـة لكل ما نعلم وما لا نعلم من مخلوقات الله عز وجل الشـاهدة ببديع صُنعه والتى خاطبنا حيال بعضـها فقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-١٩] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤-٨].

وليس عجبًا أن ينوه الله بـالإنسان وما خلقه له بيانًا صريحًا أو تـلميحًا له دلالة فى قوله تـعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩]؛ وفـى ذلك ما يدعو الإنسان إلى أن يخشع لربِّه ويتواضع لعباد الله الذين خُلقوا مما خلق منه..

لا يقـولن امـرؤ أصـلى فـمـا أصله مـسكٌ وأصل الـناس طين

هذا الإنسان الذى يتمرد بعض أفراده وجـماعته على الله عز وجل قد خلق الله له ما فى الأرض جمـيعًا وأسبغ عليه نعمـه ظاهرة وباطنة؛ وها هو ذا هنا يقرن به مولاه بعض ما خلق لـه فى تلكم الآيات من أنعامٍ وما تلاها وما تفـرق فى كتاب

الله حكمًا وأسرارًا كشف بعضها تلكم الآيات؛ وتركتنا نُعمل العقل؛ ونفرغ الوسع فى إدراك بعض أسرار الله فى خلقه ومخلوقاته؛ وهى لا تتناهى؛ ففى كل يوم جديد يقدم لنا النظر الفاحص؛ وكشوف العلم والمُختبرات والمجاهر؛ من هذه الأسرار ما يجب أن نعتده طليعة لمزيد من بديع صنع الله وحكمته ورحمته.

وليس عجبًا أن يبدأ الله عز وجل من مخلوقاته هنا الكلام عن الإبل؛ فقد كانت وسائل لمنافع وفوائد فى دنيا الناس والوحى ينزل؛ ولعل أعجب ما يترآى لنا فى هذه الإبل هيئتها التى عناها الله عز وجل ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؛ فلها قوائمها الطويلة التى تنتهى بخفافها؛ ولها جسمُها الضخم الذى تحمله هذه القوائم؛ ولها سنامها الذى يمدها عند الضرورة بالشبع؛ ولها استعدادها العجيب على استيعاب الماء والغذاء؛ هذا إلى ذيلها القصير وعنقها الطويل ورأسها العجيب الذى أذكر معه أنهم:

«قالوا للجمل: لماذا جاءت رقبتك متقوسة؟؛ فقال: وأى شيء فى جسمى مستقيم حتى أعير بانحناء رقبتى!!»؛ وهذا الحوار لا يعنى أنّ الجمل غير مُستقيم الخلقة؛ فخالقه الله الذى أحسن كل شيء خلقه؛ وهو يؤدى وظائفه الطبيعية والمهام التى نيطت به على النحو الذى يقول معه المؤمنون آمنا بالله الذى أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هدى.

ومن طبائع الجمل بجسمه الكبير أنه ينقاد للطفل الصغير حركة وإناخة. وعش معى لحظات فى تفسير (الفخر الرازى) فى الجزء الثانى والثلاثين؛ فكلماته -رحمه الله تعالى- جامعة دالة لكثير من أسرار الله فى الإبل؛ فقد قال عند تفسير قوله تعالى ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]؛ «الإبل لها خواص منها: أنه تعالى جعل الحيوان الذى يُقتنى أصنافًا شتى؛ فتارة يُقتنى ليؤكل لحمه؛ وتارة ليُشرب لبنه؛ وتارة ليحمل الإنسان فى الأسفار؛ وتارة لينقل أمتعة الإنسان من بلدٍ إلى بلد؛ وتارة ليكون له به زينة وجمال، وهذه المنافع بأسرها حاصلةٌ فى

الإبل.. وأنّ شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال؛ فكان اجتماع هذه الخصال من العجائب.. فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر فى خلقها وتركيبها؛ ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى .. وأردف أنه لا يُضائل من قدر الإبل ودلالاتها مع ما يبدو فى هيئتها من تفاوت ونشوز أنَّها لا تدرى نوع ما تحمل من متاع وأحياء كما قيل:

ما للجمال مشيها وئيدًا   أجندلا يحملن أم حديدًا

وأنها قد يشتد بها العطش والماء فوق ظهورها محمول؛ فقد ضربوها على تلك الحال مثلاً لمثل ما قال الله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] حتى قال قائلهم:

ومن العجائب والعجائب جمّة   قُربُ الحبيب وما إليه وصول

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول

ورحم الله الذى قال:

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا   بأوساقه أو راح ما فى الغرائر

فالبعير والإبل والعيس والعير بعضها من بعض، وهى على عُجمتها أرشد وأدل على سذاجة ذلك الطالب الذى سمع شيخه يروى قول الشاعر «كالعيس فى البيداء يقتُلها الظما.. «فسأله: ما (العيس)؟ فقال له: هى (العير)؛ فعاد يسأل: وما (العير)؟ فقال: (الإبل)؛ قال: وما (الإبل)؟ فقال له: (الجمال)؛ فعاد يسأل: وما (الجمال)؟ فقال الشيخ: ذلك الحيوان الذى له سنامه وذيله وعنقه وقوائمه وكرشه على النحو المعلوم؛ ثم أضاف إلى ذلك أن مَشَى على قوائمه ويديه وقال: وهو يمشى على قوائمه هكذا؛ ويقول: بوع!!

قال العلامة كمال الدين محمد بن موسى الدُميرى المصرى (المتوفى ٨٠٨هـ) فى موسوعته «حياة الحيوان الكبرى» الجزء الثانى تحت عنوان «العير».. «العير بالكسر: الإبل التى تحمل الميرة ويجوز أن تجمعه على عيرات وفى الحديث «إنهم

كانوا يترصدون عيرات قريش»؛ والعيس كما قال الدميرى رحمه الله بكسر العين: الإبل البيض يُخالط بياضُها شىءٌ من الشُقرة وأحدها أعْيَس. . . إلخ؛ والناقة: الأنثى من الإبل؛ وناقة صالحُ عليه السلام وفصيلها آية من آيات قدرة الله الدالة على وجوده؛ ووجوب توحيده.

قال العلامة الدميرى «روى أن سيد ثمود جندع بن عمرو قال: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مُخترجة؛ جوفاء؛ وَبْراء؛ عشراء؛ فصلى صالح ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تَمَخُض النتوج بولدها؛ ثم تحركت فانصدعت عن ناقة مُخترجة؛ وبراء؛ جوفاء؛ عشراء كما وصفوا. . فقال لهم صالح عليه السلام هذه ناقة الله لها شِرب يوم ولكم شرب يوم معلوم؛ فمكثت الناقة فى أرض ثمود ترعى الشجر؛ وتشرب الماء؛ وكانت ترد الماء غبًا؛ فإذا كان يوم شربها وضعت رأسها فى بئر الحجر -يقال لها بئر الناقة- لا ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها؛ فلا تدع فيها قطرة؛ ثم ترفع رأسها فتتفحج لهُم فيَحلبون منها ما شاءوا من لبن؛ فيشربون ويدخرون ويملأون أوانيهم كلها. . »؛ أليست تلك أمدادًا إلهية دالة على قدرته تبارك وتعالى؛ لكن القوم سُفِّهت نفوسهم وكفروا بربهم؛ وقتل أحمقهم تلك الناقة فاستوجبوا بذلك ما استوجبوا من الصيحة التى جعلتهم بعد ذلك هلكى جاثمين على الرُكَب.

ومرة أخرى فإن القرآن الكريم وهو كتاب الرسالة المهيمنة والدين المستوعب قد أتى كما أشرت على كثير مما عرف الناس من هوام وحشرات وحيوانات أليفة ووحشية؛ وهو بذلك يشهد أنه كتاب الأزل والأبد؛ فيه تفصيل كل شىء وبيان ما علّم الله عز وجل آدم وهو يقول ﴿ **عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة: ٣١]، كما علّمه ما وراء قوله ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٨] .

وخذوا عسل النحل مثلا:

والناس يعرفون عسل النحل بين ما أنعم الله عز وجل به على بنى الإنسان؛ فلنذكر عجالة دالة على جلال الله فى النحل الذى جعل الله من لعابه الشمع

والعسل؛ وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء؛ وحسب المؤمن أن يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

والإمام الزجاج يقول فيما روى عنه العلامة الدميرى فى الجزء الثانى من موسوعته «حياة الحيوان الكبرى» ص٣٠٤ إن النحل سُمى كذلك لأن الله نحل الناس من عسله المذكور؛ إذ النحل العطية وكفاها شرفًا قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ..﴾؛ وقد أورد الدميرى قول أرسطو «إن النحل تسعة أصناف: منها ستة يأوى بعضها إلى بعض؛ قال وغذاؤها من الفضول الحلوة التى يرشح بها الزهر والورق ويجمع ذلك كله ويدخره وهو العسل وأوعيته؛ ويجمع مع ذلك رطوبات دسمة يتخذ منها بيوت العسل وهذه الدسومات وهى الشمع». وأى شىء أدل على عجيب خلق الله فيما خلق ومن خلق مما تكشفه التحاليل والمختبرات كل يوم عن جماع قوله تعالى فى عسل النحل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ حتى جعلوا منه علاجًا لكثير من العلل؛ وقطرات للعيون؛ وضمادًا للجروح؛ وشفاءً للقلوب؛ وقوى وطاقات تمدُّ سائر جوارح الإنسان.

وقد بدأ الله عز وجل فى كتابه الكريم الكلام عن «البعوضة» فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]؛ ومع أن الله عز وجل أورد البعوضة فى الآية مثلاً للصغر والهوان فكذلك ضرب الله عز وجل «العنكبوت» في ضعفه ونسجه خيوطًا وما يبنيه من بيوت؛ يقول الله عز وجل عنها ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]؛ وكذلك يضرب الله عز وجل مثل الذباب فى قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ ولقد ذكر الله الذبابة مثلاً لسره تبارك وتعالى فيها؛ فهى تسقط كما قال الشقاة بجناح من جناحيها يحمل داء سنّ لنا النبىّ عليه

الصلاة والسلام إن كنَّا فى شىء من العسر أو الحاجة وقبلت أنفسنا ذلك الشراب أو الطعام أن نغمس الذبابة بجناحها الآخر «فإن فى أحد جناحيها داءً؛ وفى الآخر دواء» ومن لم يسغ هذا الطعام أو الشراب بعد هذه الذبابة التى أوردت سر الله فيها فوقعت بجناحها الوبىء فليلقى ذلك الشراب أو ليتصرف به بعيدًا عن ما يؤكل ويشرب. أخرج الإمام أحمد والنسائى والترمذى قول رسول الله ﷺ **«إذا سقط الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه»**؛ وما أكثر الذين ترددوا وارتابوا أمام معطيات ذلك الحديث؛ لكنهم فى غفلة ساهون عن أسرار الله عز وجل؛ وقد شرح الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- ذلك الحديث فى تعليقه على مسند الإمام أحمد؛ كما ذكر الدكتور محمد خليل هرّاس فى تعليقه على كتاب «سبل السلام فى شرح بلوغ المرام» للعلامة الكحلانى الصنعانى؛ بكلام منهما يُخرس ألسنة المُتقولين فى حديث رسول الله بغير بينة ولا برهان؛ ويبقى سر الله عزّ وجل والشهادة بوحدانيته ووجوده تبرزهما ما ألمحنا إليه قبلا من حشرات وحيوانات.

وليس يخفى المعنى الجليل من وحدانية الله وشواهد وجوده فيما زود به النمل من حكمة تبدو على ابتناء بيوته؛ وتقسيم أفراده لينهض كل بواجبه؛ فيما لو عقلناه وعرفنا بعضه لأخذنا منها مناهج وأساليب لا ترتفع إلى مستواها فى الدقة والحكمة والإعداد والتصرف فى الزاد والقيام على ادخاره لينفع فى أوقات قد يصعب فيها على النمل التحرك ومواجهة أخطار الطبيعة. وأرانى فى غناء عن الإفاضة فى ذلك الإعداد الإلهى للنمل بتأمل ودعوة الآخرين إلى تأمُل مثل قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

إنها نملة لم تتخرج فى الأزهر ولا الجامعة ولا أمثالهما فى أقطار وديار؛ ولكنها حدثت قومها ووعظتهم وحذرتهم من أن يصيبهم مكروه من سليمان وجنده على

نحو من البلاغة والفصاحة تقصر عنه مدارك وأفهام الأسوياء؛ فلقد قالت النملة منادية «يا» وجامعة فى «أى» ومنبهة بـ«ها» ومخصصة نوع الذى أجملته «أى» (النمل)؛ ثم أمرت بالدخول وحددت المكان المذكور فيه وحذرت «لا يحطمنكم» واعتذرت وهى تقول «لا يشعرون»؛ وما كان أعظم عجب سليمان عليه السلام وهو يجد هذا الأسلوب الذى احتشدت فيه كل تلك الصيغ؛ وذلك الحذر والتنبيه على الوقاية من المكاره ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وراح يسأل ربَّه أن يمنحه فوق ما منحه من مُلك لأحد من بعده؛ أن يزيده قدرة على شكر آلائه والحظوة بنعمائه؛ وهو يدعو ربَّه قائلاً ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وضاعف أمله فى ربَّه ورجائه لمولاه فقال ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

وأخلق بالهدهد أن يُختار فى هذا السياق، فقد قال واثقًا مطمئنًا لا مدّعيًا ممارِيًا لسليمان عليه السلام ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]؛ ويا لسر الله فى هذا الطائر الذى ما أرهبه وعيد نبى الله سليمان عليه السلام وتهديده إياه حين لم يجده بمكانه وهو يتفقد الطير؛ ويا لسليمان من نبى عرف أمَّته وجنده وسائر ما يقع فى سُلطانه فلا يكون كأولئك القادة الذين لا يعرفون من أمور رعاياهم ولا أفراد شعوبهم ما ينبغى أن يعرفوه حتى يُسارعوا إلى أن يقمعوه إن كان شرًا وأن يُضاعفوا منه لهم إن كان خيرًا؛ قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

وكان الهدهد من العلم والفطنة والفطرة على المستوى الذى جعله يقول فى غير ضعف ولا تخاذل ما قال الله ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] على الحال التى أكملته الآيات بعد هذه الآية؛ ومن خلالها يبدو فهم الهدهد لما نسميه اليوم الدبلوماسية؛ فقد حدث سليمان عن بلقيس وملكها وشركها وقومها؛ وعجبه أن يعبدوا غير الله تعالى؛ فأرسله سليمان بخطاب إلى بلقيس والخطاب جَلى فى قول الله تعالى على لسان بلقيس ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي

أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩-٣١]؛ وأدى الذبلوماسى الكبير مهمته حين ألقى الرسالة بالقوة التى لا يتفطَّن إليها غيره، وكان نهاية الأمر ما قصَّه الله عز وجلّ من أمر استشارة بلقيس لرجالها ومُحاولتها العاقلة أن ترسل هدية لسليمان فإن كان مَلِكًا قبلها وحورب؛ وإن رفضها كان نبيًّا يستوجب الإذعان لما يدعو إليه ويأمر به من توحيد الله سبحانه؛ والآيات من سورة النمل جلية الدلالة؛ بيّنة المراد.

وفى إجمال أذكر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وما أشرت إليه قبلا من ذلك وما تجده يطالعك فى كتاب الله عز وجل وسُنَّة مُصطفاه صلوات الله وسلامه عليه من ذكر الحيوانات، ما يدل على رحمة الله عز وجل بعباده وعلى مشاهد وجوده وشواهد توحيده ،حتى فى الحيوانات التى لا يصعب عليك أن تجدها لأول نظرة فى كتاب الله وسُنَّة رسوله شاهدًا ودليلاً على عالمية هذا الدين وعلى كفاية مصدريه الكتاب والسُّنَّة، بكل ما يضطرب ويغدو ويروح فيهما من مشاهد الوجود وشواهد التوحيد فى كل ما تراه عين ويخطر ببال.

ولقد انطلق من هذه الأسرار الإلهية فى هذه الأكوان الصغيرة من أدب قومه وغير قومه فقال: «تعلموا من كل شيء أحسن ما فيه حتى من الكلب وفاءه لسيده ومن الصقر بكوره فى طلب حوائجه».

❁❁❁

خذوا هذه الكلمات من أوروبى

الأستاذ شفيق أسعد فريد؛ مترجم كتاب «الإنسان ذلك المجهول» يقول عن مؤلفه «ألكسيس كاريل» ولد الدكتور ألكسيس كاريل بالقرب من ليون بفرنسا عام ١٨٧٣م- وذكر مؤهلاته ورحلته إلى الولايات المتحدة لُمدة ثلاثين عامًا وعاد بعدها إلى وطنه فرنسا -ذلك تلخيص بين يدى التعريف بكتابه «الإنسان ذلك المجهول» وهو أشهر كتب الرجل الذى استقبل بحفاوة هو أحق بها وأهلها وطبع عدة مرات.

وقد شاقنى ذلك الكتاب وأنا فى بيروت عام ١٩٦٠م وقرأت منه بعض موضوعاته؛ وحرصت على أن أقتطف من ترجمته سطورًا لعلها تُسهم فيما استهدفته من بيان ما لا يحتاج إلى بيان؛ لكن الحق يغرى بالحق ويمضى فى أنواره وتتابع عطاء آثاره.

والحق أبلج لا تزيغ سبيله والحق يعرفه أولو الألباب

والمؤلف يقول «ولقد اعتبرت (الإنسان) ملخصًا للملاحظات والتجارب فى جميع الأوقات والبلدان» وقال «إننى عليم بكل ما يكتنف الفقير والغنى؛ الصحيح والسقيم؛ المتعلم والجاهل؛ ضعيف العقل والمجنون؛ الذكى والمجرم.. إلخ.. كذلك فإننى أعرف الفلاحين والعمال والكتبة وأصحاب المتاجر؛ الماليين وأصحاب المصانع؛ الساسة ورجال الحكم؛ الجنود وأساتذة الجامعات؛ المدرسين ورجال الدين؛ البُرجوازيين والارستقراطيين؛ ولقد ألقت بى الظروف فى طريق الفلاسفة والفنانين...» أهـ. وهو استقصاء يعنى ما يعنى أنه عرف من طبائع هؤلاء ما استهدفه الذى قال:

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهمو لا يستوون كما لا يستوى الشجر
هذا له ثمرٌ مُر مذاقته وذاك ليس له ظِل ولا ثمر

وهذا الذى لم يَرَ فى طبائع الناس ما لا يشبه «المَرْبَع» فيقول:

أرى الناس فى الدنيا كراعٍ تنكرت مـراعيـه حـتى ليس فـيهن مَـرْبَعُ

فماء ولا مـرعى؛ ومرعى وليس ماء وحيـث ترى ماءً ومرعـى فمسـبعُ

ويذكر آخَرُ سر الله فى «النخل» وفى «العوسج» فى مواجهة الناس فيقول:

عــذرنا النخـل فى إبداء شــوك يـرد أذى الأنـامـل عــن جـنـاه

فــمـا للعـــوسج الملعـــون أبدى لنا شــوكًــا بلا ثمــر نراه؟!

ويا لسرِّ الله فيما خلق ومن خلق؟

وكـأنما ينحى بالملامة كـاريل على الذين لم ينظروا إلى مـثل قول الله تعـالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]؛ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]؛ كما قال سـبحانه ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وهو طبعًا لم تبلغه -ولعلها بلغته- تلكم الآيـات فيقول «إن علوم الجماد حققت تقدمًا عظيمًا بعيد المدى؛ بينما بقيت علوم البشر فى حالة بدائية.. ويُعزى تقدم علم الحياة البطىء إلى أحوال حياة البشر وظروفها؛ وإلى تعقد ظاهرة الحياة نفسها؛ وإلى تكوين عقلنا الذى يسره أكثر الانغماس فى التراكيب الميكانيكية... إلخ».

ثم قال «ولقـد أدى جهلنا بأنفسهـا إلى تزويد علوم الميكانيكا والكيميـاء بالقوة التى مكنتها من تعديل أشكال حياة أسلافنا كيفما اتفق».

ويعـود كـاريل فيكـرر أن جهلنـا بأنفسنـا هو سر تخـلفنا علمـيًا وحـضـاريًا واجتـماعيًا، وهو كـما ألمحتُ نداء الفطرة التى فطر الناس عليـها فى الرجل الذى أراه وكـأنه يتمـثل ما أسلفت من هـدايات آيات الطارق والذاريات وغيـرها، وهو بإجمـال يقرر أن العناية بعلوم المادة أكثـر من علوم الحياة هى سبب تخلف الحـياة

والأحـياء؛ والجـهل بأنفسنا إلى المـدى الذى لابد أن نسارع فنعـمل على الإحاطة بعلم الإنسان الـذى أصبح ضرورة ماسة للحـياة بالإنسان الحى الذى خلق الله له ما فى الأرض جميعًا وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة؛ وإن كان عنصراً من عناصر الحياة؛ يؤلفها وتتألف به فمتى نأخذ من الدين الخاتم ونحن نهتدى مع ذلك بكلام كاريل وغـيره ممن أنصفوا فأخـدموا العلم لدين الله عبـر العصور وفى رسالـته المهـيمنة بكتـاب الله وسنة رسوله ﷺ منذ كـان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكم يكون صعب المنال أن نحيط بكل ما عـرض كاريل فى كتابه «الإنسان ذلك المجهول» ومن البشريات التى ساقها وهو يعرض المعلومات والدراسات التى أفادها كتـابه «إن من الممكن تجديد الإنسـان»؛ وهى محـاولة ممكنة إن أردناها بأسبـابها؛ وأخذنا العلم والإيمان فـى مقدمة وسـائلنا تلك وهو يقول «إن إعـادة الإنسان إلى تناسق ذاته الفسيولوجية والعـقلية سوف يبدل الدنيا.. إذ يجب ألا ننسى أن الدنيا تعدل وجوهها تبعًا لأحوال جسمنا».

«لأول مرة فـى تاريخ الإنسانيـة؛ تستطيع حـضارة مـتداعـية أن تميـز أسبـاب انحلالها؛ ولأول مرة تجد مثل هذه الحـضارة قوة العلم تحت تصرفها... ترى هل سنستـخدم هذه المعـرفة وهذه القوة؟.. إنهـا أملنا الوحيـد فى الفرار من المصـير المشترك لجميع حضارات الماضى العظيم.. إن مصيرنا بين أيدينا.. فيجب أن نسير قدمًا فى الطريق الجديد».

والكتاب كما ذكرت أقـام دلالته على قيمة الإنسان والحياة التى تسـترعى اعتبار خلق الله أبانا آدم بيده القادرة وخلـقه على صـورته البشرية البـاهرة؛ وعلمه ما لم يكن يعلم؛ وأسجد لـه بذلك ملائكته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]؛ فلنكن منهم بالإيمان والعلم والعمل مخلصين.

ومن آثارنا المقدسة «**الحكمة ضـالة المؤمن**» فى أى وعاء وجدها فـهو أحق بها، والحكمة مـراد الله من عباده يأخـذونها من السنة المطهـرة ومن كل ما صلح وصح من إدراك الصواب وتحاشى ما لا يفيد.

شقائق الرجال

إن الله ربنا ورب كل شيء، وقد جبل سبحانه مخلوقاته على خصائص مشتركة وأخرى مميزة تتصل بوظيفة كل مخلوق.. وشقائق الرجال قد أعدهن الله لمهمة جليلة هي من أشرف المهام، وأى شيء يعدل الأمومة والأبوة اللذين قرن الله بهما حق الوالدين بحقه في العبادة والشكر فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. وقد حكى الله تبارك وتعالى بين وصايا لقمان لابنه قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

والآيات في ذلك كثيرة والأحاديث ثابتة مشهورة، لكنى أود أن يكون قيد الأنظار توجيه الله عز وجل الأنظار والأفكار إلى الأمهات في مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

ولقد وصى نبينا صلوات الله وسلامه عليه بالأم وقدم حقها في الصحبة مرة ومرة ومرة حتى أجاب السائل رابع مرة من أحق الناس بحسن صحابتى فقال: أبوك.

ولقد زود الله عز وجل المرأة لما يؤهلها للأمومة الكريمة من فرط حنان وفيض عاطفة، وكان مما ميزها به أنواع من الدماء تعرض لها ولبنات حواء غالبًا وهى الحيض والنفاس والاستحاضة. والحيض ليس مرضًا ولكنه عادة شهرية تبدأ فتكون أمارة بلوغ الفتاة وتأهلها للوظيفة الكبرى الضرورية في التناسل وبقاء الجنس البشرى. والنفاس دم يعقب نزول الجنين. وهو والحيض مانعان من فريضتى الصلاة والصيام ومن الطواف حول الكعبة ومن قراءة القرآن. ولقد تكفلت كتب السنة بوصف هذه الدماء

بزيادة دم الاستحاضة. ودم الاستحاضة دم مرض وحكمه حكم البول ينقض الوضوء ولا يوجب الغسل، وكل ما يلزم الأنثى لأداء عبادتها أن تغسل مكانه وتتوضأ وضوءها للصلاة، تفعل ذلك لكل صلاة ولا بأس على صلاتها مما ينزل منها فى أثنائها مثلها فى ذلك، مثل الرجل فى سلس البول فإنه يستنقى منه جهد استطاعته ويحتاط لما ينزل منه بعد ذلك ويصلى، ومثلها فى ذلك كمثل الرجل حين يطالب بإزالة الأثر ثم الوضوء فحسب لكل صلاة دون غسل.

قال الإمام الشوكانى: «وذهب الجمهور إلى أنها لا يجب عليها الاغتسال لشىء من الصلوات ولا فى وقت من الأوقات إلا مرة واحدة فى وقت انقطاع حيضها».

وهو كما قال النووى: «قول جمهور العلماء من السلف والخلف وهو مروى عن الإمام على رضى الله عنه وعن ابن مسعود وابن عباس وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما، ودليلهم أن الأصل عدم الوجوب فلا يجب إلا بورود الشرع بإيجابه وكأنه يعل الأحاديث الواردة فى الغسل ويقبل فيها مقال علماء الحديث رضى الله عنهم».

والإمام النووى يرى أنه لم يصح عن النبى ﷺ أنه أمر الصحابة بالغسل إلا مرة واحدة عند انقضاء حيضها، وذلك فى قوله ﷺ: «**إذا أقبلت الحيضة فدعى الصلاة وإذا أدبرت فاغتسلى**». والذى ذهب إليه الجمهور هو الحق لفقد الدليل الصحيح وبخاصة فى هذا الأمر، فإنه يشق على المرأة حقًا أن تغتسل من استحاضتها لكل صلاة أو لكل صلاتين أو لكل يوم؛ فإن المرأة لها شواغلها الموصولة فى البيت وللأولاد وما حملتها الظروف من واجبات وراء ذلك، وأنه ليوهنها ما يوهن الرجل المناء الذى كان يغتسل لكل صلاة حتى تشقق صلبه أو كاد وترك الغسل الذى لا يجب عليه حين جاءه الحكم من رسول الله ﷺ. وكيف لا يفعل ويفعل المؤمنون والله يقول: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧].

إن أحاديث غسل المستحاضة على كثرتها قد ورد من الصحاح ما يعارضها، وأولى منها لا ريب حديث عائشة رضى الله عنها قالت: «قالت فاطمة بنت أبى حبيش لرسول الله ﷺ: إنى امرأة أستحاض فلا أطهر أفأدع الصلاة فقال ﷺ: «**إن ذلك عرق أى دم عرق وليس بالحيضة فإذا أقبلت الحيضة فاتركى الصلاة فإذا أدبرت فاغسلى عنك الدم وصلى**». والمستحاضة دون صاحبتها هى التى ينال زوجها منها

ما أحل الله لهما، وله من الحائض والنفساء ما دون الإزار والسنة المطهرة مسفرة ببيان ذلك وإن شقائق الرجال مع هذه الدماء الحيض والنفاس بخاصة لفى مكانهن من إعزاز الأزواج ومقاربتهم فى الأكل والشرب والمضاجع على غير ما كان يفعل يهود من مباعدة النساء والنفرة منهن أثناء الحيض.

ولقد كانت أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن مع النبى ﷺ فى أيام حيضهن يقمن له بكل أعماله. . تقول عائشة رضى الله عنها: «قال لى رسول الله ﷺ: **ناولينى الخمرة من المسجد** (والخمرة سجادة من قماش أو حصير) فقالت: إنى حائض فقال: **إن حيضتك ليست فى يدك**» [رواه الجماعة إلا البخارى].

وتقول ميمونة رضى الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يدخل على إحدانا وهى حائض فيضع رأسه فى حجرها فيقرأ القرآن وهى حائض ثم تقوم إحدانا بخمرته فتضعها فى المسجد وهى حائض».

والمسجد فى غرفهن وليس المسجد النبوى وقراءة القرآن فى حجر الحائض ثابتة فى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة رضى الله عنها ولا خلاف فى ذلك، ودخولها بالخمرة إلى المسجد ثابت كذلك وهو شهادة لمن يرون مرورها فيه لا الجلوس منها ولا من الرجل عليه الجنابة.

إن رفق النبى ﷺ بشقائق الرجال وهو القدوة المثلى والأسوة الحسنة، يبدو فى هذه النصوص ومن غيرها، وقد كان منطلقًا لابن عمر الذى روى الإمام مالك عنه أنه كانت جواريه وهن حيض يغسلن رجليه ويعطينه الخمرة.

تلك ملامح من إنسانية الإسلام وددت أن يتأملها الذين يريدون أن يعرفوا الإسلام على حقيقته، إنه دين الإنسانية مظهرًا ومخبرًا وعقيدة وتكاليف وسلوكًا، وهو وحده طريق السعادة ونهج السيادة وسبيل العزة والكرامة وسكينة الأنفس. إنه الإسلام «**ومن يبتغ غير الإسلام دينًا ولن يقبل منه**».. والله ولى من اتقاه.

هذه خصائص شقائق الرجال، وهى شواهد دالة على أن لله عز وجل أسرارًا فى النساء والرجال فى العلاقة الخاصة بينهما، وذلك قدر من آيات الله فى خلقه الذين قضى أن يبث منهم ما امتن به علينا فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾ [النساء: ١].

خاتمة الكتاب

إن الأدلة النفسية والكونية التى عرضها القرآن الكريم دلالة على شواهد الوجود ومشاهد التوحيد، هى أقرب الوسائل وأفعلها فى توكيد هذه الحقائق وتقريبها إلى أفهام المخلوقين، وتأملوا معى مرة أخرى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨-٨٠].

إنها صحائف مجلوة وآيات دالة حقًا على وجود الله، وإذا لم تكن هذه الحركة البصيرة وذلك التصرف الحكيم الدقيق العجيب شاهدًا بوجود الله، فالعيب فى العقول المغلَّفة بأهوائها، وفى القلوب التى عليها أقفالها!!

وحاش أن يكون مراد الله من سوق هذه الأدلة النفسية والكونية فى كتابه الباقى، بين آيات الأحكام والإعلام بسير الأقوام، والهداية للتى هى أقوم هو مجرد المجادلة بها.. فإن وراء ذلك ما هو أهم، وهو إرساء العقيدة الحقة فى القلوب، بالإقناع بها، وجذب النفوس إليها..

أجل. إن الدلائل القرآنية أقوى مما سواها من الوسائل فى هذا الباب، فهى مع ما تفيده من العلم بوجود الخالق، فإنها تذكر بأنعمه علينا، وفيض فضله المترادف إلينا، وذلك من شأنه أن يثنى إلى الله أرواحنا، ويكبح عن الإثم جماحنا، ويزيد فى حبنا لله، وانقيادنا لأمره، وهى آثار كرامتنا وعزتنا وشرفنا الرفيع فى الحياة ويوم نصير إلى الله.

ألا يكون عجبًا من العجب -أن ندعو أبناء القرن الخامس عشر الهجرى وأبناء القرن الحادى والعشرين الميلادى إلى تأمل كلمة العربى فى جاهليته حين نظر بعرة بعير، وآثار خطى فى الأرض، ثم قلب فى السموات والأرض طرفه فقال: إذا

كانت البعرة تدل على البعير وأثر مسير السير يدل على المسير، أفلا تدل السموات والأرض وما فيهن على وجود اللطيف الخبير؟!

إنه لعجب حقًا، ففى السمـوات والأرض اليوم أضعاف أضعاف ما رأى ذلك العربى.. والسؤال الآن: هل لأولئك الذين (يجادلونك فى الحق بعدما تبين) عيون ترى؟ وآذان تسمع وعقول تعى ونفوس تنصف وتقنع؟! أم أن الأمر كما يقول الله:

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وحدوث الكون ووجوده بعد أن لم يكن، ظاهرة تدل بداهة على وجود الله!!

وكل يوم جديد يضـيف فيه العلماء وراء مناظيـرهم الكاشفة، وفى مختبراتهم الكثيرة ما يدعو إلى مزيد من الإيمان بوجود خالق الوجود، ومكون هذه الأكوان.

وقد يكون من المفيد أن أدعـو إلى قراءة كتاب «مفتـاح دار السعادة» للإمام ابن القيم، فـهو لاريب مفـتاح الكثيـر لأولئك الرواد الذين تحدثوا عن قـوانين الحرارة وعالم الأفلاك والحركة والجـاذبية والطاقة الشمسية، والذين رفضـوا دعوى الطبيعة الخالقة، والمصادفة التى صرح ويصرح بها أقوام لم تعطفهم الحجج إلى الإقرار بأن هناك إرادة حكيمة قادرة خبيرة بصيرة أمام كل شىء ومن ورائه، ولا يقوم وجودها إلا بوجود الله، تعالى الله عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا..

وإذا كانت حجة القرآن أبهر وأكبر فهل لى أن أعرض دليل عالم الطبيعة «آلان» على عدم أولية هذا الكون.. يقول:

«كثيرًا ما يقال: إن هذا الكون المادى لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود، فكيف وجـوده ونشأته؟! هنالك أربعة احتـمالات للإجابة عن هذا السؤال..

فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهـو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده.

وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

وإما أن يكون أبديًا ليس لنشأته بداية.

وإما أن يكون له خالق..

أمــا الاحتــمال الأول، فــلا يقــيم أمامنــا مشكلة، ســوى مــشكلة الإحســاس والشعور، فهو يعنى أن إحساسنا بهذا الكون، وإدراكنا لما يحدث فيه، لا يعدو أن يكون وهمًــا من الأوهام، ليس له ظل من الحــقيــقة، فــالرأى الذى يدعى أن هذا الكون ليس له وجود فعلى، وأنه مجرد صورة فى أذهاننا نعيش فى عالم الأوهام، لا يحتاج إلى مناقشة أو جدل!!

أما الرأى الثانى القــائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة، وقــد نشأ وحده من العدم، فــهو لا يقل عن سابقه ســخفًا وحماقــة ولا يستحق أن يكون مــوضعًا للنظر أو المناقشة..

والرأى الثالث الذى يذهب إلى أن هذا الكون أزلى ليس لنشأته بداية، إنما يشترك مع الرأى الذى ينادى بوجود خالق لهذا الــكون، وذلك فى عنصر واحد هو الأزلية.. وإذًا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حى يخلق.

وليس هناك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما فى الآخر، ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكــونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًــا، وأنها سائرة حتــمًا إلى يوم تصيــر فيه الأجســام تحت درجة من الحرارة بالغــة الانخفاض هى الصــفر المطلق، ويومئــذ تنعدم الطاقة، وتستــحيل الحياة، ولا مناص عند حــدوث هذه الحالة من انعــدام الطاقة عندمــا تصل درجة حــرارة الأجســام إلى الصفــر المطلق بمضى الوقت -إن الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، كلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بــزمان بدأ من لحظة معينة، فهــو إذًا حدث من الأحداث.. ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلى لــيس له بداية، عليم محيط بكل شىء، قوى ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه» اهـ.

وصدق الله العظيم:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي

الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ١-٦].

وفى كل لمسة وتر، وصكة حجر، ورفة عود أخضر، وفى كل ورقة من شجرة، كما فى إرسال الرياح، ونزول المطر، وبزوغ الشمس وطلوع القمر، وسطوع النجوم التى تهدى السارين فى جنح الليل الأليل، فى كل ذلك من الاتساق والتناغم والنظام والإبداع والإحكام والنفع العام ما يجعلنا نقول مؤمنين:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ⑬ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

ونقول مع كل منصف ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

ولقد ساق الشيخ حسن البنا -رحمه الله- فى كتابه «العقائد» بعض غرائب هذا الكون وبين دلالتها على حكمه الخالق ورحمته ونعمته، فى الهواء الذى نستنشقه وفى الطعام الذى يجدد أنسجتنا التى أوهنها العمل، ويمدنا بما لابد لنا منه، من قوة وطاقة نقدر بهما على أداء مقتضيات الخلافة عن الله فى عمارة هذا الكوكب العظيم..

إنه الله الذى علّم الإنسان ما لم يعلم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ليخلص من ذلك كله إلى الإيمان بوجوده عن طريق شهود أماراته فيما خلق ومن خلق..

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون، فإن امتنانه علينا بأصل النشأة من أمنا الأرض التى خلق الله تعالى أبانا آدم من قبضة من ترابها ما لا ينبغى أن يبقى معه ريب فى أنه تعالى فعال لما يريد بمقتضى حكمته ورحمته بالذين يريدهم عبادًا له وحده دون شريك له أو معين. ورحم الله الذى قال وهو يشير إلى الأرض:

هى أم أحنى عليك من الأ م التى خلقتك للآلام

ومن عرف نفسه فقد عرف ربه -كما يقولون.

ملحق الكتاب

الحقائق الكونية والعلمية في القرآن العظيم

دعوة إلى التدبر والتفكر

فى الصفحات التالية سطور من البحث القمة الذى كتبه الأستاذ السيد على السيد رئيس مجلس الدولة تحت عنوان: «مكانة العلم ومنهاجُه ومجالاته فى القرآن». أعجبنا فيه نفاذ النظرة، وحرارة الإيمان، وعمق البحث، ومتانة الأسلوب.

والبحث دعوة إلى التدبر والتأمل والتفكر فى آيات الله المجلوة وآياته المتلوة. لقد قدم الأستاذ الكبير فى آخر بحثه الحقائق الكونية والعلمية فى القرآن العظيم، رأينا من الفائدة وضعها هاهنا ملحقة بالكتاب رجاء النفع والفائدة. يقول:

«القرآن العظيم حفل بالآيات التى تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون تدليلاً على بارئه ومصوره، وإظهارًا لعظمته وقدرته، وتبيانًا لرحمته بخلائقه، وتفصيلاً لآلائه ونعمائه، وحثًا على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها واستغلال كنوز الأرض وثرواتها فيما يعود بالخير على البشر، وقد احتوت تلك الآيات على حقائق كونية وعلمية فى شتى مجالات العلوم: من فلك وطبيعة وما وراء الطبيعة، وطبقات الأرض والأحياء والنبات والحيوان، والأجنة، والوراثة، والصحة، والزراعة، والتجارة، والصناعة، والمال، والاقتصاد... إلخ.

نذكر منها على سبيل المثال فى بعض تلك المجالات ما يلى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

- ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٣].

- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٤- ٩].

- ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧].

- ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٥- ١١].

- ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧].

- ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

- ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ١٩-٢١].

- ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا

شدادا (١٢) وجعلنا سراجا وهاجا (١٣) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤) لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا ﴾ [النبأ: ٦-١٦]

- ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا (١٣) وقد خلقكم أطوارا (١٤) ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٦) والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ [نوح: ١٣-١٨].

- ﴿ سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى ﴾ [الأعلى: ١-٥].

- ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين (١٠) ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

- ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يس: ٣٦].

- ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة: ١٦٤].

- ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣) إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٤) هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ [يونس: ٣-٥].

- ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

- ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥- ٤٩].

- ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨].

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٢، ٧٣].

- ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ١٧-٢٧].

- ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠].

- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان: ٢٠].

- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

- ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

وهذه الآيات البينات تتصل بمولد الكون وتمدده واتساعه المستمر، وبكيفية خلق السموات والأرض، وأنها كانت جميعًا فى يوم من أيامه سبحانه وتعالى أصلا واحدًا كالدخان (السديم) فى حالة الرتق والاتصال، ثم أوحى إليها سبحانه وتعالى، فى يوم من أيامه بالفتق والانفصال، فكان الفتق ثم الرتق يومين من أيامه، مر بهما كونه: سماؤه وأرضه، على ما شاء وقدر -وكيف دحا الله الأرض فصارت كالدحية أى البيضة، وفى ذلك الإشارة إلى كرويتها المنبعجة، وكيف مرت الأرض بعد ذلك بأربعة أيام الله، أى أربعة أطوار، قدر فيها أقواتها وأرزاقها، مع الإشارة إلى النسبية فى حساب أيام الله، فهو كألف سنة مما يعده البشر أو كخمسين ألف سنة كما فى سورة المعارج، أو هو أكثر من ذلك على ما يقدره الله، وكيف أن الحياة بدأت من الماء، ثم تطورت وتنوعت وتفرعت فى شتى الصور ومختلف الأشكال والألوان، سواء فى النبات أو الحيوان أو الإنسان، وكان التزاوج وكان التطور من سنن الله فى خلقه، وأشارت الآيات إلى نواميس الجاذبية والحركة التى يمسك الله بها السموات والأرض، ويسير بها الأجرام السماوية فى أفلاكها، ووصف الجاذبية بالعمد غير المرئية، مع الإشارة الخاصة إليها، لا من الناحية الوصفية ولكن من الناحية الحسابية، ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥] ففى ذلك تنبيه إلى أثر الأبعاد فى قوى التجاذب والدفع بين الأجرام السماوية، وفى حركة دورانها فى أفلاكها، كما أشار إلى حركة دوران الأرض حول الشمس مما نتج عنه تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وأن لو شاء الله لجعل الليل سرمدًا، كما هو الحال مثلاً بالنسبة لكوكب عطارد، فلقرب موقعه من الشمس صار فى قبضتها، لا ينفك عنها حولا بحيث يصبح نصفه المواجه لها فى نهار سرمدى ونصفه الآخر فى ليل سرمدى، كما أشارت الآيات إلى الموازين والضوابط التى

تنتظم كل ما خلقه الله، فخلقه بميزان وبقدر معلوم. وأشارت إلى أهمية الجبال فى إرساء الأرض وثباتها فكانت لها بمنزلة الأوتاد وذلك حتى لا تميد بما عليها، وكيف أودع الله الأرض أقواتها خلال تلك الأيام الأربعة، أى الأطوار الأربعة، كى تستقبل حياة الإنسان، وهو الذى سخر الله له ما فيها. ولعل هذه الأيام الأربعة هى دهور الحياة فى علم طبقات الأرض.

كل أولئك حقائق لاشية فيها، لأنها من عند الله. وإنه ليطمئن قلبك إلى إعجاز القرآن إذا فهمت هذه الحقائق، فى ضوء العلم الحديث الذى لا يتعارض مع أية حقيقة منها.

- ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [النازعات: ٣١].

- ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٣، ٥٤].

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

- ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج: ٦٣].

- ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨، ١٩].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

- ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١].

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨].

- ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٧٨-٨٠].

- ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٤].

وهذه الآيات البينات تتعلق بكيفية خلق الغلاف المائى للأرض وكيف أخرجه الله منها بتكاثف أبخرتها، بعد برودة قشرتها، وبكيفية تسلسل دوران المياه بعد ذلك على سطحها وفى باطنها، وفى حياة النبات والحيوان والإنسان، وكيف يتكون الماء بالرياح

التى تثير السحاب من مياه البحر الملح ثم يؤلف الله بينه، ثم يجعله ركامًا يخرج الودق من خلاله، ثم ينزله من السماء من كسف السحاب، التى هى كالجبال فى أحجامها وأشكالها -ينزله بقوة الجاذبية ثم يسلكه أنهارًا على سطحها وينابيع فى باطنها، ويجعل بين البحرين حاجزًا وحجرًا محجورًا لا يبغيان، وكيف يتحدد نطاق الأراضى الميتة أى الصحارى، وهى التى لا يصيبها الماء ونطاق الأراضى التى تحيا بالماء، كل ذلك حسبما يشاء الله، وكيف تتأثر جزيئات الأرض بالماء فتهتز وتربو وتنبت النبات الذى يحيا عليه الحيوان والإنسان، وكيف يخرج الله النبات مختلف الألوان والأشكال فمنه الحب المتراكب، ومنه الأعناب والنخيل، والزرع صنوان وغير صنوان، وهو يسقى بماء واحد، ثم كيف يهيج النبات، ثم يصبح مصفرًا ثم حطامًا -وتتضمن الآيات الإشارة الخفية إلى التأثير الكيميائى للضوء فى حياة النبات المعروف بالتمثيل الخضرى (الكلوروفيلى) وكيف تقوم الحياة على نواتج التعفن والتحلل من بقايا الحياة السابقة من نبات أو حيوان، وكيف يرد الله بذلك على من ينكر البعث، بأنه يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، ذلك أن الأرض بعد نزول الماء عليها تصبح مخضرة ويجعل الله من الشجر الأخضر نارًا، ومفتاح المعنى وصف الشجر، فالخضرة (اليخضور أو الكلوروفيل) تساعد على النمو وعلى بناء الكيان الخشبى، واختزان ما فى هذا الكيان من طاقة تبدو نارًا عند الاستيقاد. وبعد تفهم التمثيل الخضرى وأثره، وكيف تقوم الحياة على نواتج التحلل والتعفن، من بقايا النبات والحيوان السابق الذى مات وتحلل، تدحض حجة منكرى البعث الذين يقولون كيف يحيى الله العظام وهى رميم؟! فهذا بعث للنبات.

- ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

- ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥- ٧].

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

- ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

وهذه الآيات: تتصل بعلم الأجنة وتقرر حقائق كشف عنها العلم الحديث وفسرها المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل وغيره من العلماء المجتهدين.

الطريقة الصحيحة لتفسير القرآن فى ضوء العلم الحديث:

وأرى لزامًا قبل أن أختم هذا الحديث أن أنبه هنا على الطريقة الصحيحة فى تفسير آى الذكر الحكيم فى ضوء العلم الحديث.

وقد قال المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى هذا الشأن: إن العلوم مهما تقدمت عرضة للزلل. فينبغى ألا يطبق على القرآن إلا ما يكون قد ثبت ثبوتًا قطعيًا ولم يعد يقبل الشك، فكثير من النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل، وهذه لا يجوز تطبيقها على الآيات ولو اتفقت مع ظاهرها، إنما يطبق منها ما يكون قد اجتاز دور النظريات وصار حقيقة علمية ثابتة لا شك فيها، ويشير إلى قول المرحوم الشيخ المراغى: يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها.

ثم يستطرد إلى القول بأن العالم كثير الاغترار بعلمه، فإذا لم يتفق ظاهر الآية وما يعرفه من النظريات ركن إلى علمه وشك فى الآية أو أولها، مع أن كل علوم العصر الحاضر لا تعد بعود. وإن الدار الآخرة هى التى تفسر الدار الأولى، وإن الإنسان مرتبط فى أولاه بأخراه، وفى أخراه بأولاه.

ومن هنا نعود على بدء؛ لنفهم حكمة العزيز الحكيم فى جعل الإنسان مستصلحًا للدارين، ليحصد فى أخراه ما زرعه فى أولاه.

وتدبر بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٦-٨].

الفهرس

الموضوع — الصفحة

المؤلف فى سطور:

- معوض عوض إبراهيم. ولد عام ١٣٣٢هـ ١٩١٢م فى قرية «كفر الترعة الجديد- شربين دقهلية حاليًا- غربية سابقًا» حفظ القرآن الكريم فى كتاتيب القرية ومدارسها الأولية.
- حصل على الابتدائية من معهد دمياط الأزهرى سنة ١٩٣٠ وعلى الكفاءة سنة ١٩٣٣م والثانوية سنة ١٩٣٥م من معهد طنطا الثانوى. وتخرج فى كلية أصول الدين سنة ١٩٣٩م وفى الدراسات العليا فى الدعوة عام ١٩٤١م.
- عمل واعظًا للأزهر فى أسوان عام ١٩٤٢ وفى الفيوم سنة ١٩٤٥م وفى بورسعيد سنة ١٩٤٨- ١٩٥٦م. عمل مبعوثًا للأزهر للوعظ والتدريس فى بيروت لبنان من ١٩٥٦م- ١٩٦٢م. ثم زار اليمن لعدة شهور عاد بعدها فأنشأ المعهد الدينى فى بورسعيد عام ١٩٦٤م. وعمل فى الوعظ والتدريس فى العقبة من ١٩٦٥م- ١٩٦٩م. ثم عمل مفتشًا ومراقبًا للوعظ فى القوات المسلحة ومحاضرًا فى الدراسات العليا قسم الحديث فى كلية أصول الدين حتى عام ١٩٧٣ ثم عمل مدرسًا فى كلية الشريعة فى الرياض عام ١٩٧٣ ثم باحثًا علميًا فى رئاسة البحوث العلمية والإفتاء إلى عام ١٩٧٦م حيث عمل بعد ذلك مدرسًا فى كليتى أصول الدين والحديث النبوى فى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة، وفى عام ١٩٧٩م إلى ١٩٨٧ عمل رئيسًا لقسم الدعوة فى وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى الكويت، وزار الكليات الإسلامية فى بلاد: كراتشى وبيشاور ولاهور وإسلام آباد فى باكستان، وزار البحرين مرات، وكذلك اليمن وقطر وسوريا.

• صدرت له المؤلفات الآتية:

١- فلسطين وكيف نستردها عربية مسلمة.
٢- إنسانية العبادات الإسلامية.
٣- ملامح من هذا الدين.
٤- الإسلام وطرق هديه.
٥- الإسلام والأسرة.
٦- قبس من الإسلام.
٧- ركائز المجتمع المسلم فى سورة الحجرات.
٨- مع الإمام البخارى فى كتاب العلم من صحيحه.
٩- نفحات القرآن.
١٠- الرسالة والرسول فى شعر أبى طالب.
١١- مشاهد الوجود وشواهد التوحيد.
١٢- عنصر الهداية فى القرآن الكريم.
١٣- الأولاد ودائع الله عندنا.
١٤- ذلك الدين القيم.

• وتحت الطبع والإعداد:

١- التقوى والمتقون فى ضوء القرآن والسنة.
٢- من أدب النبوة.
٣- فلسطين وفقه النصر والتمكين.
٤- الصوم فى ضوء القرآن الكريم.
٥- رجال ونساء فى مجال القدوة.
٦- من رحيق الإيمان «ديوان شعر».
٧- جوانب من دعوات المرسلين.
٨- دراسات فى اللغة والأدب.
٩- أوراق داعية.
١٠- خطب الشيخ معوض عوض إبراهيم.
١١- الداعية الرحالة معوض عوض إبراهيم (حياته وآثاره فى رحاب الدعوة).